

# الواقع العّاهَاتِ المُزَّم







色了

### فى التنوير الإسسلامي

# تحليل الوافع بمنهاج العاهات المُزْمنة

تاليف و. مجركارة





اسم المؤلف د. محمد عمارة.

اشراف عام داليا محمد ابراهيم تاريخ النشر | نوفمبر ١٩٩٩

رقم الإيسداع | ١٥١٧٢ / ١٩٩٩م .

الترقيم الدولي | 1 - 1138 - 14 - 977 I.S.B.N 977

الناشير | نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

الركزالرئيسى ( ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة .

مدينة السادس من أكتوبر.

ت: ۲۸۷ / ۲۱، (۱۰ خط وط).

فاكس: ٢٩٦/٢١١.

١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة .

ت: ۷۲۸۹۰ - ۵۹۰۸۸۲۷.

فاكس: ٥٨٠٣٣٩٥/٠٠ ص.ب: ٩٦ الفجالة. ٢١ ش أحمد عرابي – المهندسين – الجيزة .

ב: 3737737 - 3777737/7.

فاكس: ٢٧٥٦٦٦٢٥٧٠ ص.ب: ٢٠ إمبابـة .

مركز التوزيع

إدارة النشسر

**→→** تمهید

تواريخ الأمم ومسارات الحضارات ، ليست سكونا دائما ، ولاخطا صاعدا باستمرار، أو هابطا أبدا . . وإنما هي دورات متتابعة ، تحكمها السنن والقوانين . . فيها الصعود والهبوط . . التقدم والتراجع . . الإبداع والجمود . . الازدهار والانحطاط . . وعن هذه الحقيقة - التي يؤكدها الاستقراء لتاريخ الأم والحضارات - حقيقة الدورات المتتابعة في مسارات الأم والحضارات - يعبر القرآن الكريم عندما تقول آياته : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُكُمْ سُنَنٌّ فَسيرُوا في الأَرْضَ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقبَةُ الْمُكَذِّبينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لَّلنَّاس وَهُدَى وَمَوْعَظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كَنتُم مَّوْمْنينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مَّثْلُهُ وَتَلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخذَ منكُمْ شَهَدَاءَ وَاللَّهَ لا يُحبُّ الظَّالمِينَ (١٤) وَليُمَحَّصَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافرينَ (١٤١) أَمْ حَسبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَم اللَّهُ الَّذينَ جَاهَدُوا منكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابرينَ ﴾ (١) ﴿ هَا أَنتُمْ هَوَّلاء تُدْعُونْ لَتَنفقُوا في سَبيل اللَّه فَمنكُم مَّن يَبْخُلُ وَمَن يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخَلَ عَن نَّفْسه وَاللَّهَ الْغَنيُّ وَأَنتُمَ الْفَقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلُّواْ يَسْتَبْدَلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (٢) .

<sup>(</sup>١) آل عمران : ١٣٧ – ١٤٢

كذلك يعبر عن هذه السنة والقانون - فى دورات مسارات الأمم والحضارات - حديث رسول الله ، والحضارات - حديث رسول الله ، والحضارات - حديث يطلع ، فكلما طلع من الجور شىء ذهب من العدل مثله ، حتى يولد فى الجور من لا يعرف غيره ، ثم يأتى الله ، تبارك وتعالى ، بالعدل ، فكلما جاء من العدل شىء ذهب من الجور مثله ، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره » (٣) .

#### \* \* \*

وفى مواجهة مراحل الهبوط والتخلف والتراجع والمآزق الحضارية ، تفاوتت وتتفاوت المواقف الفكرية والفلسفات . .

فهناك من يستسلم لواقع الهبوط والتراجع والجور، فيزعم أنه قدر الهي ، أو حتمية تاريخية ، أو جبلة طبيعية ، أو صفات لصيقة وخصوصية عرقية أو مكانية ، ليس هناك سبيل إلى الفكاك من نتائجها وثمراتها . . وبذلك يتجاوز نطاق الاستسلام لواقع المأزق إلى حيث يكرسه ويؤبده ، باعثا اليأس والقنوط من الأمل في أي تغيير . .

وهناك من يرى فى الواقع الهابط والمأزق الحضارى ثمرة للسنن والقوانين التى أفضت إليه ، فيسعى إلى الوعى بهذه السنن وتوجيه هذه القوانين لتغيير هذا الواقع والخروج بالأمة من المأزق الحضارى الذى تردت فيه . . .

ولقد تكرر هذا «المشهد الفكرى» ثلاث مرات في واقعنا الفكرى ومسيرتنا الحضارية خلال القرن العشرين . .

<sup>(</sup>٣) رواه الإمام أحمد .

● فبعد إلغاء الخلافة العثمانية [١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤م] تعددت وتناقضت الاجتهادات الفكرية والسياسية في وطن العروبة وعالم الإسلام:

فنشأت أحزاب وتبلورت مدارس فكرية ترى فى «الوطنية الإقليمية» و «الدولة القطرية» نهاية المقاصد، وغاية المراد من رب العباد. وتأصيلا لهذه التوجهات وخدمة لها ، كانت الكتابات التى انهالت على فكرة الخلافة ومبدأ الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية بالنقد والنقض والتشويه . فصورتها استبدادا خالصا ، وطغيانا كاملا ، وكهانة دينية ، على النحو الذى صوره الشيخ على عبد الرازق [١٩٠٥ - ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦] فى كتابه [الإسلام وأصول الحكم] ، عندما رأى الإسلام نصرانية يدع مالقيصر لقيصر وما لله لله ، فهو دين لا دولة ، ورسالة لا حكم ، وما كان رسوله ، ولم يؤسس دولة ولا ملكا ، ولم يسس مجتمعا ، ولم يُقم وحدة سياسية . . كما رأى الخلافة – دائما وأبدا – كهانة دينية وقهرا سياسيا(٤) . .

ومن مـثل كـتـابات سـلامـة مـوسى [١٣٠٥ - ١٣٧٧ هـ ممن الشرق ، والالتحاق بأوربا ، لأن التفرنج - في كل شيء - من القبعة إلى الثقافة إلى

<sup>(</sup>٤) على عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص ٢٤ - ٢٠ ، ٢٠ – ٢٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م . وانظر - كذلك - كتابنا [معركة الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م .

اللغة إلى نظم الحكم والفلسفات الاجتماعية - هو طريق التقدم والنهوض . . فالعامية- لغة الهكسوس - أفضل من لغة القرآنُ والتقاليد العربية ، والرابطة الشرقية سخافة . . أما الرابطة الدينية فإنها وقاحة لا تليق بأبناء القرن العشرين (٥)!

ولقد عملت هذه الكتابات- بصرف النظر عن نوايا أصحابها-على تكريس الهزيمة ، وتطبيع العقل العربي والمسلم مع واقعها وثمراتها . . ومهدت السبيل لمحاولات تبنى النموذج الحضاري الغربي- التفرنج، باللغة الصريحة لسلامة موسى - وذلك بحجة انتفاء الخصوصية الحضارية ، لأن العقل الشرقى - في رأيهم -كان ولا يزال يونانيا . . أساسه ومكوناته هي :

- ١ حضارة اليونان ، وما فيها من أدب وفلسفة وفن .
  - ٢ وحضارة الرومان ، وما فيها من سياسة وفقه .
- ٣ والمسيحية ، وما فيها من دعوة للخير وحث على الإحسان .
- ولم يغير القرآن ولا الإسلام من الطابع اليوناني للعقل الشرقي ، كما أن الإنجيل لم يغير من الطابع اليوناني للعقل الأوربي . .
- ولذلك ، فعلى الشرقيين أن يسلكوا طريق الغربيين . . فطريق التقدم والنهوض «واحدة فذة ليس فيها تعدد ، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم في الحكم والإدارة والتشريع<sup>(١)</sup>.

<sup>(</sup>٥) سلامة موسى [اليوم والغد] ص ٥ - ٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م . وانظر - كذلك - كتابنا [الإسلام بين التنوير والتزوير] ص ٩٧ - ١٥٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م .

<sup>(</sup>٦) د . طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر] جد ١ ص ٢٩ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٤٥ ، ٣٦ ، ٣٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

لكن . . وفي مواجهة هذه الاجتهادات ، كان هناك الذين لم «يعترفوا» بالواقع ، فينتهوا إليه ويكرسوه ، وإنما «تعاملوا» مع ذلك الواقع ليغيروه . . فلم يزعزع سقوط الخلافة العثمانية إيمانهم بوحدة الأمة الإسلامية، ووحدة دار الإسلام، المؤسستين على وحدة العقيدة، ووحدة الحضارة – وهي الجوامع الخمسة التي وحدت قوميات الشرق الإسلامي وملله ونحله – فظلوا على يقينهم بقدرة الأمة على تجاوز محنة هذا المأزق ، التي فرضتها هيمنة المد الاستعماري الغربي ، الذي استعان بالعجز العثماني والتخلف الموروث ، ليحل نموذجه محل نموذجنا ، وليجهض مشاريع التجدد والتجديد لذاتيتنا الحضارية الإسلامية . .

ولقد قدم هذا التيار الإحيائي والتجديدي- في الفكر والسياسة- اجتهادات عصرية لروابط مقترحة لوحدة الأمة ، ولشكل جديد للخلافة الإسلامية- التي جسدت أو على الأقل رمزت لوحدة الأمة والدار- لاتتجاهل هذه الاجتهادات التمايزات القطرية والتنوعات القومية، ولكنها لا تقف عندها..

وكان في طليعة هذه الاجتهادات ذلك الإبداع الفكرى الذي صاغه أبو القانون المدنى الحديث وفقيه الإسلام الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا [١٣١٣ – ١٣٩١هـ ١٨٩٥ – ١٩٧١م] عن [فقه الخلافة الإسلامية وتطورها لتصبح عصبة أمم إسلامية] (٧) .

<sup>(</sup>۷) انظر الترجمة العربية لكتاب السنهورى – وهو فى الأصل رسالة دكتوراه – بالفرنسية – سنة ۱۹۲٦م – ترجمة : د . نادية عبد الرزاق السنهورى ، تقديم وتعليق : د . توفيق الشاوى طبعة القاهرة سنة ۱۹۸۹م . وانظر كتابنا : [الدكتور عبد الرزاق السنهورى : إسلامية الدولة والمدنية والقانون] ص ۱۹۲۱ - ۱۶۲ طبعة دار الرشاد . القاهرة سنة ۱۹۹۹م .

ولقد تبنت هذا الاتجاه الفكرى - الذى تعامل مع الواقع ، دون أن يسلم بذلك الواقع- مع تفاوت فى العمق والسطحية . . ومع مد الأفاق والمقاصد إلى عالم الإسلام أو الوقوف بها عند الدائرة القومية العربية- الدعوات والحركات والأحزاب الإسلامية والقومية العربية التى تبلورت فى بلادنا منذ العقد الثالث للقرن العشرين . .

هكذا تميزت المواقف الفكرية والسياسية - ومن ثم الحضارية -إزاء مأزق سقوط الخلافة ، وعموم بلوى الاستعمار والعلمانية ، عقب الحرب الاستعمارية العالمية الأولى . .

● ولقد تكرر هذا «المشهد الفكرى» – مرة ثانية – في مواجهة مأزق الهزيمة الحادة التي أصابت المشروع القومي العربي سنة ١٩٦٧م . .

فكتب توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزى عن أننا أمة قد احترفت صناعة الحضارة ، لكن لا دربة لها على صناعة الحروب وفنون القتال . . وتحدث الأستاذ محمد حسنين هيكل مع الأسف والاستغراب عن القطيعة التي حدثت بين الأمة وبين الحرب والقتال منذ قرون (^) . . وهي كتابات لابد وأن تفضي بصرف النظر عن نوايا أصحابها - إلى تصوير الهزيمة أمام الصهيونية والإمبريالية باعتبارها القدر الذي ليس منه فكاك! . .

<sup>(</sup>٨) محمد حسنين هيكل [الانفجار: قصة حرب يونيو سنة ١٩٦٧] ص ٨٠٣ – ٨٠٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م – والنص في : د . محمد جابر الأنصاري [تكوين العرب السياسي ومغزي الدولة القطرية] ص ٥٠ طبعة بيروت سنة ١٩٩٥م .

بل ورأى توفيق الحكيم فى «كامب ديفيد»، وتصالح مصر وإسرائيل: تحالفا بين المتحضرين، يخلّص المتحضرين من البداوة العربية المتخلفة! . . فالعدو العاقل خير من الصديق الجاهل - كما كتب أحد القساوسة المصريين فى ذلك التاريخ: -

وفى مواجهة هذه الاجتهادات، صمدت عناصر وقوى المقاومة و الوطنية والقومية والإسلامية - فى مواجهة مأزق الهزيمة، فبحثت عن السُّنن والقوانين الحاكمة للانتصار، فطبقتها فى التعبئة الوطنية والقومية، وفى الإعداد القتالى . . بل وكان المد الإسلامى - الذى تعاظم فى سبعينيات القرن العشرين - ثمرة من ثمرات وتجليات هذا الصمود . . والأمل والطموح فى تجاوز مأزق الهزيمة . . وذلك إعمالا لسنن الله وقوانينه : ﴿ وَإِن تَتَولُوا يَسْتَبُدلُ قَوْمًا غَيْر كُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْشَالَكُمْ ﴿ وَلا تَهنُوا فِي ابْتَغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّه الله يَرْجُونَ وَكَانَ اللّه عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٠)

● أما المرة الثالثة ، التي تكرر فيها هذا «المشهد الفكرى» فكانت عقب حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩١م - والتي رافقت انهيار المعسكر الاشتراكي - وزوال التناقض الاجتماعي في النموذج الحضاري الغربي ، فتوحدت قبضة الحضارة الغربية لأول مرة - في مواجهة الآخر الحضاري - منذ عصر التنوير الأوربي . . فكان إعلان

الغرب- وخاصة دوائر الاستراتيجية وصنع القرار- أن الإسلام هو العدو - وأن النموذج الغربي هو «نهاية التاريخ» وأن «صراع الحضارات» هو طريق انفراد المركزية الغربية بالهيمنة على هذا الكوك الذي نعيش فيه . .

وأمام هذا المتغير البارز في النظام الغربي - المُعَوْلَم - شاع الحديث عن قضاء وقدر «العولمة» و «الكوكبة» و «الكوننة»، والاندماج الحتمى في «النظام العالمي الجديد».. فالسيادة الوطنية للدولة القومية .. والتنمية المستقلة .. والهوية الحضارية .. والخصوصية الثقافية .. والحماية الصناعية والتجارية .. هي - في رأى البعض - من أوهام الماضي، وجمود السلف، ومخلفات الرجعية، البعض - من أوهام الماضي، وجمود السلف، ومخلفات الرجعية التي تجاوزتها وطوت صفحتها هذه المتغيرات .. وشاع الحديث عن العالم باعتباره «قرية واحدة»، يحكمها قانون «الاعتماد المتبادل» .. وذلك رغم أن أهل وبيوت هذه «القرية الواحدة» ليسوا سواء .. ففيهم القاتل والمقتول .. ولا يمكن أن يكون هناك اعتماد متبادل بين «المُجتاح» ومن يتعرض للاجتياح .. بين من يغتصب السيادة وبين من يحرم من كل ألوان السيادة ، والحق في تقرير المصير، وأن يُحكم بالقانون الذي يريد - ..

وفى مواجهة هذا اللون من الاجتهادات ، صمدت - أو ظلت صامدة - تيارات الأصالة المتجددة - الإسلامية والقومية والوطنية - التي تؤمن بالقدر الأمريكي . . والتي ترى في هذه المتغيرات مجرد متغيرات ، وتنكر وتستنكر أن تكون هذه

المتغيرات هى نهاية التاريخ . . فالتاريخ تصنعه الأم والشعوب ، عندما تعى وتمتلك قوانين وسنن صنع هذا التاريخ . . أما نهاية هذا التاريخ فهى قضاء إلهى ، استأثر بعلمه علام الغيوب . . وليست الليبرالية الرأسمالية المتوحشة ، التى تريد اجتياح حضارات الجنوب ، وتأبيد النهب لثروات أم هذه الحضارات . .

وإذا كان «إقالاعنا الحضارى» هو طوق نجاتنا من مخاطر هذا الاجتياح، فإن لذلك «الإقلاع» سننا وقوانين، ممكنة التحقيق، ولسنا بإزاء عاهات مزمنة، تثمر «جبريات وحتميات» يستحيل تجاوزها، والشفاء من أمراضها..

#### \* \* \*

وإذا كانت أغلب الكتابات- التي احترف أصحابها «صناعة تزييف الوعي» لتكريس الهزية- هي كتابات «صحفية- إعلامية» ، لا علاقة لها ولا لأصحابها «بالدراسات العلمية» . . فإنه يكفى في تفنيد «منطقها»- القائم على التسليم بالواقع- قليل من الوعي بالتاريخ ، الذي ينعش ذاكرة الأمة بسنية الدورات في مسارات الأم والحضارات عبر التاريخ . . فتاريخ كل الأم عبارة عن دورات من الانتصارات والهزائم . . والتقدم والتراجع . . واليسر والعسر . . والبحبوحة والضيق . . والانفراجات والمأزق . . لكن الأم الحية لم تعرف أبدا التسليم بالأمر الواقع ، الذي يفرضه عليها القصور والتقصير أو تحديات الأعداء ، أو هما معا . .

● فالصليبيون قد احتلوا أكثر وأوسع مما احتلت إسرائيل- التي

هى «قفاز» للقبضة الغربية - واستمر هذا الاحتلال الصليبي أربعة أضعاف عمر إسرائيل - قرنين من الزمان - [ ٤٨٩ - ٢٩٠ هـ أصعاف عمر إسرائيل - قرنين من الزمان - [ ٤٨٩ - ٢٩٠ هـ فأسلافنا قد حاربوا وتاجروا . وانتصروا وانهزموا . وخاصموا وهادنوا . لكن عين الأمة وذاكرتهالم يغيباعن كامل الحق، حتى تعدلت الموازين فتحقق الانتصار .. وكان العلم والفكر والدين والأدب في خدمة الوعي بكامل الحق، والسعى لامتلاك سنن استرداده، لا في خدمة التسليم بالأمر الواقع! ..

● والقدس الشريف – وهى رمز الصراع ، ومفتاح الانتصار – احتلها الصليبيون لأكثر من تسعين عاما – أى ثلاثة أضعاف عمر الاحتلال الصهيونى لكاملها – ويومئذ تحول الأقصى إلى كنيسة لاتينية . . بل واصطبل خيل! . . ومع ذلك ، لم يعترف أحد بهذا الأمر الواقع . . بل ظلت القدس على كل لسان ، وفي كل خطاب ، ولدى جميع الشعراء ، حتى عادت – بامتلاك سنن القوة والنصر – متمتعة بعافية التحرير! . .

لقد ظل «فكر الأمة» - ويرمز إليه «العماد الكاتب» - يخاطب «الدولة» - في صورة صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩هـ ١١٣٧ - ١١٩٣م] فيقول عن بيت المقدس :

وهَيَّجْتَ ، للبيت المقدس لوعة يطول بها منه إليك التشوق هو البيت ، إن تفتحه ، والله فاعل فما بعده باب من الشام مغلق! حتى تحقق الانتصار . .

● والأزهر الشريف . . لقد تحول يوما إلى «اصطبل» لخيل بونابرت

[۱۷۷۹ - ۱۸۲۱ م] . . وسكر فيه جنوده ، وبالوا وتغوّطوا ، ومزقوا المصاحف وعربدوا ! . . ثم غدا ذلك سطرا أسود في تاريخ غابر . . لم يستسلم لواقعه أحد في ذلك التاريخ ! :

● والجنزائر . . تحوّلت إلى «إيالة فرنسية» وليس مجرد «مستعمرة» وزنا وثلث القرن ، كان الاسلام فيها مطاردا ، وتعلّم العربية جريمة! . . والشعارات تعلن : «لقد ولّى عهد الهلال وأقبل عهد الصليب»! . .

وعندما انهزمت نفوس آحاد من أبنائها ، فتجنسوا بالجنسية الفرنسية ، أفتى الإمام عبد الحميد بن باديس [١٣٠٧ - ١٣٥٩هـ ١٨٨٩ - ١٩٤٠م] بألا يدفن هؤلاء المهزومون نفسيًا في مقابر المسلمين! . . وأعاد الجرائر إلى العروبة والإسلام الشهداء والجاهدون الذين لم يعترفوا بالأمر الواقع! . .

وهكذا ، ليس فى ديار الإسلام بقعة إلا وقد أصابها التاريخ «بواقع أليم» . . ربما أشد إيلاما من المأزق الذى يعانى منه العرب والمسلمون هذه الأيام . .

● ف «قاهرة» اليوم - التي تضمد جراح حرب الخليج الثانية . . وسعى - مع عواصم عربية وإسلامية أخرى - للملمة القوة ، وصف الإمكانات- وإن كان في بطء وتدرج- هي «القاهرة» التي امتلك الصليبيون يوما مفاتيح أبوابها ، وفرضوا «الجزية» على أهلها . . بل وأكل أهلها لحوم الموتى ، من شدة الجاعات التي توالت عليها!(١١) . .

<sup>(</sup>١١) انظر - للمقريزي - [إغاثة الأمة بكشف الغمة] - أو تاريخ الجماعات في مصر- طبعة سنة ١٩٤٠م .

لكن الفارق بين الساعين لتغيير الواقع البائس والظالم وبين السلِّمين والمستسلمين له ، والمكرسين - بالاجتهادات الفكرية الخاطئة - لمأزقنا الحضارى الراهن . . هو «الأمل . . والرجاء» ، يتعلق به قوم ، ويفتقر إليه ويفرط فيه آخرون . . وصدق الله العظيم ﴿ وَلا تَهُنُوا فِي ابْتَغَاء الْقُومُ إِن تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَيَرْجُونَ منَ اللَّهَ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيمًا حُكيمًا ﴾ (١٢) .

وهذا «الأمل.. والرجاء» ليس «حلماطوباويا»، ولا «مثاليات» عزت على الممارسة والتطبيق، وإنماهو البصيرة في التعامل مع الواقع، بدلا من مجرد النظرة الظاهرية لصورة الواقع.. فأمتنا التي تعاملت مع الكسروية الفارسية.. والقيصرية البيزنطية.. والحملات الصليبية.. والغارات التترية.. والاستعمار الغربي الحديث والمعاصر.. والاستطيان الصهيوني.. والتي عانت المجاعات والخيانات، هي ذاتها الأمة التي عاشت «العالم الأول» على ظهر هذا الكوكب، لأكشر من عشرة قرون.. بينماعمر الغرب، كعالم أول» لا يتجاوز القرنين من الزمان! . .

فالقليل من «الوعى بالتاريخ» - تاريخ الصراعات بين الأم والتدافع بين الخضارات - كفيل بتبديد مقولات الداعين إلى الاعتراف بالأمر الواقع - من كتاب الصحف ونجوم أجهزة الإعلام!..

*	*	米
---	---	---

<sup>(</sup>۱۲) النساء : ۱۰٤ .

## ♦♦ الجَزَع المشروع!

لكن ، من حقنا - بل وواجبنا - أن نجنع إذا ذهبت بعض الكتابات الجادة فقرأ أصحابها واقعنا التاريخي على النحو الذي يكرس واقع التجزئة والتشرذم والهزيمة والتبعية الذي تعيشه أمتنا . . بل ويجعل من مكونات هذا الواقع البائس الأمر الطبيعي المتسق مع «لوازم طبيعة المكان .. ولوازم طبيعة الإنسان» للعرب والمسلمين ! . .

من حقنا أن نجزع عندما نقف أمام قسمة من قسمات المشروع الفكرى لباحث نحترمه ، ولا شك في إخلاصه لوطنه وعروبته وإسلامه ، هو الأخ العزيز الأستاذ الدكتور/ محمد جابر الأنصارى . . إذا قادت اجتهاداته ، في هذه القسمة من قسمات مشروعه الفكرى- بصرف النظر عن النوايا الحسنة- إلى تكريس وتأبيد عوامل الهزيمة في واقعنا الحضارى المعاصر . .

لقد اقتحم الدكتور الأنصارى ساحتنا الفكرية فى فروسية واقتدار، بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م.. وأشهد أنى كنت واحدا من الذين سعدوابه سعادة كبرى.. فميلاد المفكر فى الأمة جدير بأن يكون عيدا من أعياد هذه الأمة، يجب أن تحتفى به وتحتفل، كما كانت تصنع القبائل العربية قديما مع نوابغ و فحول الشعراء.. وأشهد أنى لا أزال أتتبع أعمال الدكتور الأنصارى، وأعلق عليه الكثير من الآمال..

لكنني بدأت أقلق من نغمة أراها خطيرة وخاطئة ، بدأت تتحول

إلى قسمة بارزة في المشروع الفكرى للدكتور الأنصارى بعد كارثة حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩١م . .

فلقد وقف الرجل في كتابه [تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية: مدخل الى إعادة فهم الواقع العربي] الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٩٤م - ثم في كتابه [التأزم السياسي عند العرب وموقف الإسلام: مكونات الحالة المزمنة] - الذي صدر سنة ١٩٩٥م - . . وقف أمام بعض سمات واقعنا التاريخي فأخطأ في اجتهاده لتفسير وتحليل هذه السمات ، ثم استنتج استنتاجات ، مثلت وتمثل - في رأيي - زاداً تلقفه المهزومون نفسيا ليهيلوا التراب على أشواق أمتنا في النهوض ، وعلى آمالها في التضامن والتكامل والتوحيد . .

لقد وقف الدكتور الأنصارى أمام المأزق الحضارى الذى يمسك بخناق أمتنا ، فأرجعه إلى «عاهات مزمنة» رآها أزلية أبدية ، منذ الجاهلية ، وعبر الإسلام ، وحتى واقعنا المعاصر . . و «العاهات المزمنة» لا سبيل إلى البرء منها ولا الخلاص من آثارها . .

ولقد تحدث عن مشروعه الفكرى – إزاء هذا المأزق الحضارى – باعتباره المهمة المعرفية الكاشفة عن جذور هذه «العاهات المزمنة» في واقعنا التاريخي – والتي لم يسبق لأحد قبله إنجازها – فهي «مهمة معرفية خطيرة.. لم ينجزها الوعى العربي كاملة بعد، على ما بذلت من جهود قيمة بهذا الصدد...».. مهمة «فتحت ملف المعضلة السياسية الكاملة للعرب طوال تاريخهم، قبل الإسلام وفي الإسلام»

rted by 11ff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وذلك لكشف «جذور الأزمة المزمنة .. والتردى المزمن للعرب في السياسة .. والتأزم السياسي المزمن في الحياة العربية .. والواقع التاريخي المزمن والمتحكم .. والقصور العربي الأساسي الكامن والمتمثل في شبكة العلاقات والآليات السلوكية الجمعية .. الموروث والراهن إنها تركيبة ضاغطة وشديدة التأثير ومترسخة في الواقع، لأنها نشأت من جذور جغرافية واجتماعية متشابكة خاصة بالمنطقة العربية ، فهي ذات خصوصية عربية .. خصوصية تكوين مجتمعي عربي مختلف عن التكوينات المجتمعية في الأمم الأخرى .. خصوصية نابعة من «الطبقات الجيولوجية المشتركة والواحدة .. من العمق نابعة من «الطبقات الجيولوجية المشتركة والواحدة .. من العمق المجتمعية المغورة الكوارث .. المنطقة بالذات ، والتي حتمت خصوصيتها الطبيعية الجغرافية نشوء المنطقة بالذات ، والتي حتمت خصوصيتها الطبيعية الجغرافية نشوء ظواهر أساسية مزمنة .. ونشوء التأزم المزمن والمتكرر .. والمختلف عن أية تجربة سياسية أخرى في العالم . . "(١٣) .

حتى لقد جعل الدكتور الأنصارى عنوان أحد كتبه إعلانا عن اختصاص أمتنا ، دون كل أم الأرض ، بالزمانة في أسباب التراجع الحضارى الذى لم يره مجرد تراجع ، وإنما رآه افتقارا وفقرا أصليا وأصيلا في تكوين المجتمع والاجتماع . . والدولة . . والسياسة . . والتواصل الحضارى - . . فسمى الكتاب [التأزم السياسى عند العرب .. مكونات الحالة المزمنة] . .

<sup>(</sup>۱۳) [التأزم السياسى عند العرب وموقف الإسلام: مكونات الحالة المزمنة] ص ۷،۸، الشرام المتازم السياسى عند العرب ومغزى التكوين السياسى عند العرب ومغزى الدولة القطرية: مدخل إلى إعادة فهم الواقع العربى] ص ج ، ۲۰، ۳۲- ۳۵، ۵۰.

وهذه «العاهات المزمنة» المتأصلة في الطبقات الجيولوجية للواقع العربي وللإنسان العربي ، يأتي في مقدمتها عاهتان :

- ١ عاهة مزمنة في المكان، هي «الصحراء» .
- ٢- وعاهة مزمنة في الإنسان، هي «البداوة»...

وعن هاتین العاهتین المزمنتین، نشأت وتنشأ، وتکررت وتتکرر عاهات عربیة مزمنة أخرى، من مثل:

١ - القطيعة المزمنة بين العرب وبين الدولة.. والمجتمع المدنى والمديني.. والحضارة المتصلة..

- ٢ والقطيعة المزمنة مع السياسة..
- ٣- والقطيعة المزمنة مع القدرة على الدفاع عن النفس، الأمر الذى
   جعل التبعية للغير عاهة عربية مزمنة..
  - ٤- بل وأيضا القطيعة مع صلب العقيدة الإسلامية..

تلك هى «العاهات المزمنة» التى اكتشفتها «المهمة المعرفية» غير المسبوقة ، فى المشروع الفكرى للدكتور الأنصارى . . والتى سندير معه - حولها - حوارا موضوعيا- من موقع الحب والإعزاز ، والحرص على أن يكون «المؤمن مرآة أخيه» - بلغة أصالتنا . . ولترشيد حياتنا الفكرية «بالنقد الموضوعي» - بلغة المعاصرة - . .

# → • عاهة الصحراء العربية

لقد وقف الدكتور الأنصارى أمام «الصحراء العربية» فرآها عقبة طبيعية ، حالت -تاريخيا - دون قيام مجتمع عربى ، ومن ثم دولة عربية . . فهى قد قطّعت أوصال الأمة تاريخيا ، فحالت بينها وبين أن تبنى مجتمعا أو دولة ، ومنعت الاتصال الحضارى ، عبر تاريخنا الطويل . . وفى ذلك يقول :

«إن هناك قطيعة مكانية داخلية بعيدة الأثربين الأقطار والمناطق والأقاليم العربية، لم يُلْتَفَت إليها علميا وقو ميافى الوعى العربى بدرجة كافية، ولم تُدرس آثارها الخطيرة في طبيعة المجتمع العربي في نسيجه الموحد، وفي الحضارة العربية الإسلامية في امتدادها وتواصلها، وفي الكيان السياسي العربي- قديما وحديثا- وفي تأرجعه المستمربين الوحدة والتجزؤ.

إن هذه القطيعة المكانية تتمثل في دور الفراغات والفواصل والحواجز الصحراوية الشاسعة الممتدة بين معظم الأقطار العربية في تقطيع وتجزئة المنطقة العربية عمر انيا وسكانيا، وبالتالي مجتمعيا وسياسيا، في الماضي، وإلى الحاضر. وإذا دققنا النظر في خريطة التجزئة السياسية العربية على امتداد الوطن العربي كله فسنجد الصحراء هي عامل التجزئة الأول والأكبر قبل الاستعمار وغيره من عوامل التجزئة. إن الصحراء هي العامل الانفصالي الأقوى في الحياذ

العربية، ولا يوجد بلد عربى غير صحراوى (عدا لبنان).. إن الفراغات الصحراوية قد منعت نشوء نسيج حياتى عضوى.. لجتمع موحد، ولدولة موحدة ثابتة، متواصلة من القدم إلى اليوم.. إنها معوقات ناجمة أصلاعن الطبيعة الجغرافية.. (١٤) لقد مثلت الصحراء، ومازالت تمثل أخطر التحديات بلا استثناء لاستمر ارية الحضارة العربية الإسلامية، وتواصلها السياسى، فضلاعن المدينى والمدنى (٥٠).. وقبل أن يظهر الاستعمار و «يجزأ» الوطن كانت تلك الفواصل والحواجز الصحراوية الشاسعة هي عامل التجزئة الأول والأكبر في الوطن العربى» (١٦).

فالصحراء - برأى الدكتور الأنصارى - هى العاهة المزمنة التى فرضت علينا - قديما وحديثا - قطيعة عمرانية ، وسكانية ، ومجتمعية ، وسياسية ، وفي الدولة ، والحضارة . . وهي الصحراء - وليس الاستعمار - عامل التجزئة الأول والأكبر في الوطن العربي . . وهي عاهه مزمنة ، لأنها «الطبيعة الجغرافية» للمكان .

فنحن - بناء على هذا الفهم لواقع الصحراء العربية - أمام خُلْق الهي - هو الصحراء - ومعوقات ناجمة عن الطبيعة الجغرافية - لا حيلة لنا إزاءها - قد حالت بين العرب - على امتداد تاريخهم -

<sup>(</sup>١٤) [تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية] ص ٣٨، ٥٠.

<sup>(</sup>١٥) [التأزم السياسي عند العرب] ص ٦٥ .

<sup>(</sup>١٦) [تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية] ص ٦٤ .

وبين «نشوء نسيج حياتى عضوى لمجتمع موحد ولدولة «موحدة» . . بل ومانعة من «الاستمرارية الحضارية العربية الإسلامية» . . فواقعنا الصحراوى يحول بيننا وبين الوحدة ، ويفرض علينا «القطيعة المكانية . . والمحمرانية . . والمحتمعية . . والسياسية . . والحضارية . . والدولية» أيضا . . ودائما وأبدا . .

وإذا كانت الصحراء هى الصحراء . . بل إننا نشكو من زيادة «التصَحَر» ، فكأننا – بهذه القراءة للواقع – أمام «عاهة مزمنة» – تزداد حدة زمانتها – لا سبيل معها لوحدة المجتمع ولا الأمة ولا الدولة ولا الحضارة ، لا اليوم ، ولا فى المستقبل المنظور ، بل وربما بعد المنظور أيضاً . . إنه قدرنا الطبيعى ، الذى صنعته ولا تزال تصنعه بنا هذه الصحراء – دون كل خلق الله – قبل الاستعمار ، وبعد الاستعمار ! . .

فهل هذا «علم . . وفكر»؟ وهل هذا صحيح ؟ . . .

ليسمح لنا الدكتور الأنصارى أن نذكّره بأن هذه الصحراء العربية لم تحل دون تبلور الأمة والجتمع ، وقيام الدولة ، وبناء الحضارة ، عندما ظهر الإسلام – والرجل عن يقولون بذلك ، وإن كان يقصره على قرنين من الزمان ، يرى أن القطيعة والانقطاع قد أعقبهما – فيقول عن الإنجاز الإسلامي – الذي يسميه «الحركة الإسلامية» – إنها «قد نجحت في تجاوز تلك القطيعة ونقضها خلال مانتي سنة» (۱۷) - أي حتى نهاية العصر العباسي الأول ، وقبل سيطرة الماليك على الدولة العباسية . .

<sup>(</sup>١٧) المرجع السابق . ص ٧٦ ، ٧٧ .

إذن ، فالصحراء لم تمنع تجاوز القطيعة، عندما توفرت أسباب الوحدة التي انجزها الإسلام . . حدث ذلك ، وكانت الصحراء يومها مفازات مهلكة ، وربعا خاليا لا يُجاز ، ومجهولا تُحكى عنه أساطير الجان وأودية الشياطين – ومع كل ذلك ، توحد إنسانها في عقيدة وشريعة وأمة وحضارة ودولة ودار ، أزالت القوى العظمى يومئذ – الفرس والروم – وفتحت – فتح تحرير للأرض والضمير – في ثمانين عاما أوسع مما فتح الرومان – سادة الفتح الأوربي – في ثمانية قرون ، وحولت خط سير التمدن ، وموطن قيادته ، وطبيعة شمانية قرون ، وحولت خط سير التمدن ، وموطن قيادته ، وطبيعيا من وحدة الأمة والجتمع والدولة والحضارة والنسيج الحياتي لما حدث ذلك ، بصرف النظر عن عصر هذا الاتحاد الذي أنجزه الإسلام . .

كل هذا حدث ، والصحراء على النحو القديم . .

فهل تحول الصحراء اليوم، بعد أن انتقل إنسانها إلى ألوان ودرجات متقدمة من التوطن والاستقرار والتحضر، وبعد أن غادر إنسانها حياة الارتحال وراء الماء والمرعى.. وبعد أن ربطته - كالحضرى سواء بسواء - ثورة وسائل الاتصال بكل العالم، وليس فقط بحواضر العرب والمسلمين.. فأصبح يعيش أحداث الدنيا لحظة بلحظة، بالمذياع، والتلفاز، والناسوخ (الفاكس)، وشبكة المعلومات العالمية (الإنترنت)، والأقمار الصناعية.. هل تحول الصحراء اليوم - وهذه هي الطفرة التي نقلت إنسانها إلى التلاحم بالعالم - دون وحدة المجتمع والأمة والدولة

والحضارة، فتُعْجِزَ إنسانها العصرى عن إنجاز ماسبق وأنجزه أسلافه، في وضعها القديم، وعقباتها الكأداء، قبل أربعة عشر قرنا؟! . .

ثم، مادلالة أن يأتى الحديث عن «مرض الصحراء وعاهتها وعقبتها ودانها»، المانع من وحدة العرب، كمجتمع وأمة ودولة.. أن يأتى هذا في ظل الحديث عن تحول العالم - كل العالم - وليس فقط العالم العربي - إلى «قرية صغيرة» ؟! وعن «العولمة» و «الكوكبة»، التي لا مكان فيها حتى للخصوصيات الثقافية والقومية والحضارية ؟!

فهل «العولمة والكوكبة والكوننه» لاتحول دون إلحاق والتحاق جميع العرب بالمركز العالمي الواحد- والذي هو غربي! - بينما لاتستطيع هذه «العولمة» إلحاق العرب وتوحيدهم حول مركز عربي واحد؟!..

وهل صحراؤ نالاتحول دون انخراطنا في «العالمية»، بينما تحول دون انخراطنا في العروبة كنسيج اجتماعي واحد، وأمة واحدة، ودولة واحدة، تتمايز فيها وتتعدد الشعوب والقبائل والولايات والأقاليم والأقطار؟!

وأليس من المفارقات حديث الدكتور الأنصارى عن الصحراء-«كمعوقات طبيعية جغرافية» - عامة في العالم العربي، تحول دون وحدته- إلا في لبنان، الذي يخلو من الصحراء- فهل رأى الدكتور الأنصارى وحدة لبنان - حيث لا صحراء - كنسيج حياتي عضوى أفضل مماهى عليه في غير لبنان؟!..

وامتدادا لهذا «التفسير الجغرافي» للمأزق الحضارى والقومى الذى تعيشه أمتنا، يذهب الدكتور الأنصارى إلى تفسير وقوف

اللغة العربية والتعريب عند الوطن العربى ، بوجود الهضاب الثلاث – التركية فى الشمال . . والفارسية فى الشرق . . والأثيوبية فى الجنوب – فهذه الهضاب الثلاث – برأيه – هى التى حصرت اللغة العربية فى الوطن العربى ، ومنعتها من تجاوزه ، لأن هذه الهضاب قد استعصت على الجمال!! . . يذهب الدكتور الأنصارى إلى هذا التفسير الجغرافى العجيب ، فيقول : «كانت هناك الارتفاعات المتنعة الثلاثة التى حالت تاريخيا دون انتشار حركة التعريب . . وهي هضبة الأناضول (التركية) وهضبة فارس (الإيرانية) وهضبة الجبشة (الأثيوبية) ، انتصبت هذه الهضاب المتنعة الثلاث أمام موجات الهجرة العربية فلم تتعرب بشريا ولغويا ، وإن اجتازها الإسلام وتجاوزها . . لقد قاومت التعريب لتمنعها أمام قوافل الجمال العربية . .» (١٨)

وإذا كانت هذه الهضاب لم تحل دون الإسلام وعبورها - وتغيير اللغة ليس أصعب ولا أمنع من تغيير الدين - فهل بحث الدكتور الأنصارى عن أسباب لتراجع التعريب غير هذه الهضاب؟ . .

إن قبول الفرس للإسلام دون العربية راجع إلى أن دينهم القديم لم يكن مكافئا للإسلام . . بينما كانت لغتهم - ذات التراث العربق - ما يستحق أن يتشبثوا به . . فضلا عن أن الدين الإسلامي يسمح بتعدد اللغات في أمته ودولته، ويعتبر اختلاف الألسنة (اللغات) آية من آيات الله ﴿ وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمُواتِ

<sup>(</sup>١٨) المرجع السابق . ص ٦٢ ، ٦٣ .

وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لَلْعَالمِينَ ﴾ (١٩) . .

أما عدم تعرب الترك فله أسباب ، منها: العصبية ومنها ضعف سلطان العربية في الحقبة التي دخل فيها الأتراك الإسلام . . مع ملاحظة أن العربية قد اتخذت لها مكانا ملحوظا - كلغة للقرآن والشريعة والثقافة - وراء هذه الهضاب ، وتركت بصماتها - حروفا ومفردات - في غيرها من اللغات الإسلامية في كل عالم الإسلام . .

وغريب أن يرى الدكتور الأنصارى قوافل الجمال مختصة بحمل اللغة العربية! . . فهل ، ياترى ، كان لحمل الإسلام- الذى تجاوز هذه الهضاب - حيوانات - غير الجمال - لم تستعص عليها هذه الهضاب؟! . . أم أن الخيل قد امتنعت عن حمل العربية ، واختصت بحمل الإسلام؟! . .

وبعد أن جعل الدكتور الأنصارى هذه الهضاب الثلاث موانع طبيعية حاصرت الوطن العربى ، وحالت دون عبور العربية لها ، عاد فناقض ذلك عندما تحدث عن افتقار الوطن العربى للموانع الطبيعية التى تحول دون اجتياحه من قبل موجات الرعاة «فالصحارى العربية المفتوحة – مشرقا ومغربا – حالت دون تواصل المنطقة واستقرارها حضريا . . كما لم تنعم المنطقة العربية بحدود طبيعية حصينة تثبت وتحمى إقليمها الجغرافي من موجات الهجرة

<sup>(</sup>١٩) الروم : ٢٢ .

والغزو والاجتياح الخارجي المتواصل الذي كان أبرز عامل في تقطيع ديومة الدولة فيها (٢٠)» .

فمرة: هناك الموانع الطبيعية التى تحصر العربية فى الوطن العربى . . ومرة: هناك الصحراء المفتوحة شرقا وغربا ، والتى حالت دون وجود الموانع الطبيعية التى تحمى الوطن العربى من غزوات الرعاة! . . .

إن الحديث عن الصحراء ، باعتبارها العاهة المزمنة ، التي مثلت وتمثل «عامل التجزئة الأول والأكبر في الوطن العربي» ، حديث لا علاقة له بالواقع التاريخي أو الحديث أو المعاصر لهذه الصحراء ، وله ذه التجزئة . . ففي ظل الخلافة الإسلامية الواحدة تعددت وتمايزت الولايات، وكانت هذه الولايات المتعددة هي التي تجزئ الصحراء الولايات. ولايزال ذلك قائما حتى هذه اللحظات.. فالصحراء العربية الولايات.. ولايزال ذلك قائما حتى هذه اللحظات.. فالصحراء العربية في إفريقيا واحدة متصلة، والدول القطرية - مصر والسودان وليبيا وتشاد وتونس والجزائر والمغرب.. الخ - هي التي تجزئ وتقسم هذه الصحراء، وليست الصحراء هي التي تجزئ هذه الأقطار.. وكذلك السعودية واليمن والعراق وسوريا ودول الخليج.. وليست الصحراء مي التي تجزئ وتقسم هذه الأقطار.. فصحراؤنا - كحواضرنا مي التي تجزئ وتقسم هذه الأقطار.. فصحراؤنا - كحواضرنا - كما يقول الدكتور الأنصاري..

\* \* \*

<sup>(</sup>٢٠) [التأزم السياسي عند العرب] ص ٣٦،٣٥.

### ₩ عاهةالبَداوة 🕊

أما العاهة الثانية التى رآها الدكتور الأنصارى لصيقة بالإنسان العربى – بعد عاهة الصحراء اللصيقة بالواقع العربى – والتى تحول بين هذا الإنسان وبين وحدة الأمة والدولة والجتمع وحذق السياسة وبناء الحضارة ، فهى «البداوة» . .

ولو وقف الدكتور الأنصارى بعاهة البداوة عند سكان الصحراء العربية ، لهان الأمر . . لأن البدو- سكان الصحراء- في بلاد مثل مصر وتونس والمغرب والعراق وسوريا واليمن وساحل الخليج وفيها أغلبية سكان الوطن العربي - نسبتهم إلى مجموع السكان أقل من ١ ٪ . . ونسبتهم في ليبيا والجزائر من ١ ٪ إلى ٥ ٪ . . وفي السعودية والسودان من ٥٪ إلى ١٥٪ . . والصومال هو البلد الوحيد الذي تزيد فيه نسبة البدو عن ١٥ ٪ (٢١) . .

لكن الدكتور الأنصارى لايقف بعاهة البداوة عند هذه النسبة الضئيلة من سكان الصحراء . . وإنما يذهب ليعمم عاهة البداوة حتى على سكان الحواضر العربية ، لأن هذه الحواضر -بنظره- واقعة تحت تأثير بداوة الصحراء ، تسودها البداوة المقنعة . . يذهب إلى ذلك فيقول : «إن الصحراء في المنطقة العربية-، ليست حكرا على البداوة والبادية، فهي تمثل مجمل طبيعة الوطن العربي ومناخه، حاضرة وبادية، وحتى الوديان والأنهار والمدن الكبرى فيه يعتبرها الجغرافيون ظواهر ومعالم صحراوية، نظرا إلى احتواء

<sup>(</sup>٢١) فيليب فارج ، ورفيق البستاني [أطلس معلومات العالم العربي] ص ٧٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤ م .

الصحراء إياها من جميع الجهات طبيعيا ومناخيا.. فإذا كانت المجتمعات الحضرية المجتمعات الحضرية انطوت على تركيبة مزدوجة ذات توتر خفى أو ظاهر بين القيم الحضرية والقيم البدوية، باعتبار أن المادة البشرية الحضرية قدمت - أصلا - من البادية . . . (٢٢) .

وبعد أن عمم الدكتور الأنصارى «عاهة البداوة» على كل العرب – حتى الحضريين منهم – وهم عامة العرب وجمهورهم – استند إلى قراءة مجتزأة وخاطئة لبعض نصوص ابن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ – ١٤٠٦م] التي تحدث فيها عن «العرب» ، فأخطأ في فهم مراد ابن خلدون بـ «العرب» . . كما وقف أمام مصطلح «الحضارة» في فكر ابن خلدون ، فأخطأ في فهم مراده بهذا المصطلح ، ثم خلص – بالقراءة الخاطئة – إلى أن البداوة العربية التي عممها على كل العرب – قد حالت بين العرب وبين فن السياسة وبناء الملك والدولة ، ومن ثم وحدة المجتمع والأمة عبر التاريخ! . .

صنع الدكتور الأنصارى ذلك عندما قال: «ويشارك ابن خلدون بدوره في التعبير عن إشكالية السياسة المزمنة في حياة العرب بمقولته الشهيرة: «فبعُدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك»(٢٣).

وهنا نسال: من هم «العرب» الذين حكم ابن خلدون بأن «طباعهم قد بَعُدَت عن سياسة الملك» ؟ . . هل هم العرب كأمة؟ . . أم العرب الأعراب الموغلون في البداوة والتوحش ، قبل

<sup>(</sup>٢٢) [تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية] ص ٤٦، ٤٥ .

<sup>(</sup>٢٣) المرجع السابق . ص ٢١ .

أن يتدينوا بالإسلام ، فتتهذب طباعهم ، ويساعدهم الإسلام على حذق إقامة الملك والدولة وسياسة العمران ؟ . .

لقد أغفل الدكتور الأنصارى نصوص ابن خلدون، بل وحتى عناوين الفصول في [المقدمة]، والتي ميز فيها ابن خلدون بين أحوال وأطوار وطبائع العرب إزاء الملك والسياسة.. فكان هذا الحكم العام القاسى والغريب!.

لقد عقد ابن خلدون - في مقدمته - فصلا جعل عنوانه:

[فصل في أن العرب أبعد الأم عن سياسة الملك]..

لكنه- قبل هذا الفصل مباشرة - عقد فصلا آخر جعل عنوانه: [فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة]..

ولو أن قارئا وقف - فقط- عند عنواني هذين الفصلين لأدرك أن هناك عربا يحكم عليهم ابن خلدون بأنهم أبعد الأم عن سياسة الملك.. وهناك عرب يحسنون الملك والسياسة ، لكن إذا كان لهم حظ من الدين .

وعندما يقرأ القارئ ما تحت عناوين الفصول ، سيجد فكر ابن خلدون شديد الوضوح فى التمييز بين العرب فى طور التوحش والإيغال فى البداوة ، قبل التدين بالإسلام ، أو عند الانسلاخ عن جوهره . . وبينهم عندما جعلهم الإسلام سادة الفتوحات وأساتذة الدول والسياسات . .

فعرب البداوة المتوحشة - عند ابن خلدون - هم الذين اختصوا «بالإبل، وهي أصعب الحيوان خصالا ومخاضا.. فاضطروا إلى الإبعاد في النجعة.. فأوغلوا في القفار.. فكانوا لذلك أشد الناس توحشا، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه، والمفترس

من الحيوان العجم.. فهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقا وجبلة، وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج على ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة. وهذه طبيعة منافية للعمران ومناقضة له، فغاية الأحوال العادية عندهم الرحلة والتغلب، وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له، فالحجر - مثلا - إنما حاجتهم اليه لنصبه أثافى للقد ر، فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ويعد ونه لذلك، والخشب أيضا، إنما حاجتهم إليه ليعمر وابه خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم، فيخربون الستقف عليه لذلك، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء، الذى هو أصل العمران.. فهم أكثر بداوة من سائر الأمم، وأبعد مجالا في القفر، وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها، لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش، فاستغنوا عن غيرهم، فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلا فهم ذلك، وللتوحش.. فهم متنافسون في الرياسة، وقل أن يُسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته وقل آن يُسلم أحد منهم الرعية في الجبايه والأحكام فيفسد العمران..»

تلك هي صورة العرب - عند ابن خلدون - في طور «البداوة المتوحشة» . . الذين يفرون من الاستقرار والبناء والعمران ، ويهدمون المباني لتحويل أحجارها إلى أثافي للقدور ، ويهدمون السقف ليتخذوا من أخشابها أوتادا للخيام . . فكيف يجعل باحث في وزن ومقام الدكتور محمد جابر الأنصاري من هذه الصورة طبيعة العرب بإطلاق ، وجبلتهم كأمة عبر العصور والقرون ؟! . . . بل ويجعل هذه البداوة المتوحشة ضربة لازب حتى للعرب الذين يسكنون الحواضر ، لأن هذه البداوة - في رأيه - تظل سارية فيهم وغالبة عليهم وأسرة لطباعهم ؟! . .

إن ابن خلدون قد رأى هذا الطور من أطوار «البداوة المتوحشة» عاماً في الأجناس والأعراق الموغلة في البداوة ، ولم يره خصيصة للعرب وحدهم من دون الناس ، فقال – في هذا السياق – : «وفي معناهم - [أي وفي مثل إيغال هؤلاء العرب في البداوة] - ظعون البربر وزناتة بالمغرب، والأكراد والتركمان والترك بالمشرق . . إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة ، لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط ، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معا . . (٢٤) .

فهذه الأوصاف خاصة بفئة الأعراب الموغلة في توحش البداوة، والتي لا تعتمد إلا على الإبل وحدها، فتوغل في القفار، ولا تتخذ من الشياه أو غيرها مادة للعيش. . إنهم أعداء البناء والقرار والاستقرار ومقومات العمران. .

أما الأمة العربية التي جاءتها رسالة الإسلام ، ونبوة محمد ، والتي حملت الإسلام إلى العالمين ، وفتحت الفتوح ، وأقامت الدول والممالك ، وبنت الحضارة ، وساست العمران . . فلابن خلدون حديث طويل عنها . لاندرى كيف أغفله الدكتور الأنصارى ؟! . . يرى ابن خلدون أن الدين هو طريق العرب للبراعة في الملك والدولة والسياسة والحضارة والعمران . . وأنهم عندما تدينوا بالإسلام حق التدين لم يكن لأحد من الخليقة ما كان لهم من الملك . . فهو شرط براعتهم في الدولة والسياسة ، وبدونه يعودون للعجز عن سياسة الملك . . فيقول :

«فإذا كان الدين.. كان الوازع لهم من أنف سهم، وذهب خُلُق الكب والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بمايشملهم من الدير (٢٤) [المقدمة] ص ٥٦، ٩٧، ١١٨ - ١٢٠ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ . المنهم المنطقة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس.. يُنهب عنهم منمومات الأخلاق، ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، في حصل لهم التغلب والملك، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى، لسلامة طباعهم عن عوج الملكات وبراء تهامن ذميم الأخلاق». ثم يضى ابن خلدون، في تحدث عن أثر التدين بالإسلام على

حذق العرب لبناء الملك وسياسة المجتمعات - بعد أن كان الموغلون منهم في التوحش أبعد الناس عن سياسة الملك - فيقول :

«واعتبربذلك فى دولتهم فى الله - (الإسلامية) - لَمَّا شيَّد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا، وتتابع فيها الخلفاء، عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم، فلمانبذوا الدين: نسوا السياسة، فتغلبت عليهم العجم. ورجعوا كما كانوا لا يعرفون الملك ولا سياسته، بل قد يجهل الكثير منهم أنهم كان لهم مُلْك فى القديم، وما كان فى القديم لأحد من الأمم فى الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك. (٢٥)».

فكيف غابت هذه النصوص الخلدونية عن الدكتور الأنصارى . . وهى فى ذات الصفحات التى نقل عنها حديثه عن بُعد العرب عن سياسة الملك- بعد أن جرده من سياقه ، كما رأينا؟! . .

\* \* \*

وكما وظف الدكتور الأنصارى نصوص ابن خلدون فى غير موضعها الطبيعى والصحيح . . صنع ذلك مع الدكتور جواد على . . فنقل عنه قوله :

لقد «حالت البرارى بين العرب وبين تكوين المجتمعات الكبيرة والكثيفة ، وعرقلت الاتصالات بين المستوطنات التي بعثرتها . .

<sup>(</sup>٢٥) المصدر السابق . ص ١١٩ – ١٢١ .

وبعثرت الأعراب في البوادي على شكل قبائل وعشائر . والمجتمعات الكبيرة الكثيفة هي المجتمعات الخلاقة التي تتعقد فيها الحياة ، وتظهر فيها الحكومات المنظمة للعمل والإنتاج وللتعامل بين الناس (٢٦) . .» . فجواد على يتحدث عن «الأعراب» . . والدكتور الأنصاري يستشهد بالنص في الحديث عن «العرب»! . . وهذا النص لحواد على - قد جاء في كتابه [تاريخ العرب قبل الإسلام] . . والدكتور الأنصاري يستشهد به في حديثه عن العرب بعد الإسلام . . والدكتور عصرنا الحديث، وواقعنا المعاصر! . . وذلك ليحكم به على انتفاء قيام المجتمع العربي في الإسلام! . .

\* \* \*

ومن هاتين العاهتين :

الصحراء: عاهة المكان . .

والبداوة: عاهة الإنسان . .

انطلق الدكتور الأنصارى للحديث عن آثارهما فى القطيعة بين العرب وبين «الدولة» . . والقطيعة بين العرب وبين «القدرة على حماية الذات «السياسة» . . والقطيعة بين العرب وبين «القدرة على حماية الذات والديار» . . فالتبعية للغير هى قَدَرهم الأزلى الأبدى ، وهم دائما «عيال على الغير» ، الاستعمار الغربى اليوم . . والموجات الرعوية المملوكية بالأمس . وذلك لينتهى إلى أن الممكن ، فى ظل هذه العاهات المزمنة ، هو «الدولة القطرية» . . فهى غاية المراد من رب العباد فى ميادين الدولة والمجتمع والتوحيد! . .

\* \* \*

<sup>(</sup>٢٦) [التأزم السياسي عند العرب] ص ٤٧ .

### ♦ القطيعة مع الدولة ﴾

وتأسيسا على العاهات المزمنة - الصحراء: عاهة المكانوالبداوة: عاهة الإنسان . . وانطلاقا من الفهم والتوظيف المغلوطين
لكلمة ابن خلدون: «فبعُدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة
الملك» - والتي قالها عن أهل البداوة المتوحشة ، الذين لم يهذبهم
التدين بالإسلام . . والتي انتزعها الدكتور الأنصاري ليصم بها
الأمة العربية عبر كل تاريخها . . انطلاقا من ذلك ، وتأسيسا
عليه ، حكم الدكتور الأنصاري بأن العرب - طالما أنهم لا يحسنون
سياسة الملك - قد عاشوا تاريخهم بلا دولة - بالمعني المؤسسي
للدولة - لقد عرفوا «السلطة» و «الحكومة» ، لكنهم لم يعرفوا
«الدولة» الدائمة ذات «الأجهزة والمؤسسات» فكانت «دولتهم
هلامية» ، وبعد قرنين من عمر تاريخهم الإسلامي ، قامت
القطيعة بينهم وبين الدولة منذ عهد الماليك . . ولقد اعتبر
الدكتور الأنصاري هذه القطيعة العربية مع الدولة «خصوصية
عربية» ، فهي - الأخرى - جبلة وعاهة مزمنة ، لأنها نتاج لعاهات
مزمنة ، هي البداوة والصحراء . . وهو في ذلك يقول :

«مفصل هام وملمح متفرد لخصوصية التاريخ السياسى العربى.. وإلى حد كبير حاضره.. أن العرب في ظل دولة الخلافة الإسلامية- الأموية والعباسية والفاطمية والعثمانية- قدعاشوا في واقع الأمر حالة «دولتية» هلامية، كانت «دولتهم» خلالها في نشوء وتحلل متواصلين في الوقت ذاته.. بحيث جاز القول: إن العرب قدعرفوا

«الدولة، ولم يعرفوها في الوقت ذاته.. لقد عرفوا أشكالا عدة من السلطة السياسية والنظم الحاكمة، لكن هذه الأشكال من الحكم (الحكومة) لم تجد إطارها المؤسسي البنيوي والشرعي الشامل (الدولة)، فظلت الحكومات تتحرك وتتخبط في فراغ مؤسسي وبنيوي نتيجة ذلك التشكل والتحلل المستمرين لذلك الإطار «الدولتي» الهلامي والمضطرب.. فكانت هلامية الدولة في التاريخ والواقع العربي...» (٢٧).

ومنذ العصر العباسى الثانى – عندما سيطر المماليك على الخلافة – بعد قرنين من تاريخ الإسلام – يرى الدكتور الأنصارى أن القطيعة قد حدثت بين العرب وبين الدولة والسياسة والحضارة جميعًا . . فلقد حدث – كما يقول – «انقلاب ضد الدولة العربية وضد الحضارة الإسلامية .. فعادت القطيعة السياسية والقطيعة الحضارية معًا إلى مشهد التاريخ العربي، بعد أن نجحت الحركة الإسلامية المتحضرة في احتوائها وتقليص أثرها لقرنين من الزمان (٢٨)» .

بل لقد قاد هذا الرأى الدكتور الأنصارى إلى اتهام العرب بأن قطيعتهم مع الدولة قد أدت إلى انحرافهم عن «صلب العقيدة الإسلامية»! . . وذلك عندما تبنى رأى المستشرق «جب Gibb [السير هاملتون] وقال: «إن مأساة التاريخ الإسلامي تعود - كما

<sup>(</sup>۲۷) المرجع السابق . ص ۳٦ ، ۳۷ ، ۲۰ ، ۸۲ ، – وانظر - كذلك - قوله - فى ص ۸۲ : «ارتبطت هذه الدول المتتابعة «بالسلطات» الحاكمة التى تقيمها ، وتذهب بذهابها ، فتماهت معها ولم يتبلور بالتالى «التجريد المؤسسى لكيان الدولة» .

<sup>(</sup>٢٨) [تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية] ص ٧٦ .

يرى جب Gibb - إلى « أن العقيدة الإسلامية لم تجد تعبيرها الحقيقى الواضح فى المؤسسات السياسية للدول الإسلامية»، إذ «لم تنشأ عن هذه العقيدة من المؤسسات الاجتماعية أى نظام سياسى أصيل غير اتجاهات غامضة تمثلها «الخلافة» بنشأتها الحائرة، وانحرافها من خلال تاريخها عن صلب العقيدة الإسلامية إلى السير فى اتجاه التقاليد وأصول الحكم الهلينية والفارسية ..» (٢٩) .

وكما ظلم الدكتور الأنصارى ابن خلدون ، عندما وظف كلمته : «فبعدت طباع العرب عن سياسة الملك» ، في غير موضعها . . ظلم كذلك - عمر بن الخطاب ، عندما استدل بقوله : «لا مُلك على عربي» ، على الرفض العربي الطبيعي والجبلي للدولة! . . وأسس على ذلك دعوى القطيعة العربية مع الدولة . .

فهل هذا الذى قاله الدكتور الأنصارى صحيح؟ . . وهل كان تاريخنا مع الدولة تاريخ انقطاع؟ وهل لم يعرف العرب من الدولة إلا الدولة الهلامية ، التى لم تَعْدُ سلطة الحاكم والسلطان ، ولم تتجسد فى مؤسسات دائمة للحكم والإدارة؟؟ . . لننظر . .

إن أكثر ما يثير الاستغراب - في فكر الدكتور الأنصاري عن «الدولة» - هو «مفهومه المعياري للدولة» ، فالدولة - عنده - والتي افتــقـدها - برأيه - في التاريخ والواقع العـربيين هي «الدولة الهيجلية» - نسبة إلى الفيلسوف الألماني «هيجل [١٧٧٠- ١٨٣١م] - فالعرب لم يقيموا دولة هيجلية ، ولذلك خلا تاريخهم

<sup>(</sup>٢٩) [التأزم السياسي عند العرب] ص ٢٨ .

من الدولة . وبعبارة الدكتور الأنصارى : فإنه «من منظور فلسفة

من الدولة الحديثة يمكننا القول: إن العرب قدعر فوا الدولة بمفهومها لدى مكيا فيلى وهوبز، لكنهم لم يقتربوا منها بمفهومها لدى هيجل وچون لوك (٣٠٠)» . .

ونحن نسأل: هل يجوز محاكمة شكل ونوع وطبيعة الدولة تاريخيا إلى شكل ونوع وطبيعة الدولة الحديثة ؟

وهل يجوز محاكمة معايير الدولة في الحضارات غير الأوربية إلى معيار الدولة في الحضارة الأوربية تحديدا؟ . .

وهل من الضرورى للدولة، كى تكون دولة، أن تأتى على النمط الهيجلى دون سواه ؟ . .

وهل طابقت الدول، في التاريخ الأوربي، القديم منه والحديث، نموذج الدولة الهيجلية؟..أم أن الدكتور الأنصارى ينفى عن خلق الله، في مختلف الحضارات، وكل مراحل التاريخ، القدرة على سياسة الملك وإقامة الدولة طالماأن دولهم لم تطابق النموذج الهيجلى في الإطلاق والشمول والثبات والدوام ؟! . . .

أما عن كلمة عمر بن الخطاب: «لا ملك على عربى» ، فإن معناها أن العرب لا يخضعون لجبابرة الملوك . . فالملك فى الاصطلاح العربى - هو الجبار ، وملكه ملك جبرية . . ولا يصح أن يفهم من كلمه عمر بُعد العرب عن الدولة ، لأنه قد قال هذه الكلمة وهو الخليفة ، ورأس الدولة! . .

<sup>(</sup>٣٠) المرجع السابق . ص ٣٩ .

ثم - وهذا هو الأهم في حوارنا مع الدكتور الأنصاري حول هذه القضية - إن الدكتور الأنصاري لا ينكر إبداع العرب لحضارة عربية إسلامية . . فهل يمكن قيام حضارة - في قامة وطول وعرض وعمق ونوع حضارتنا الإسلامية - دون وجود دولة للأمة وللمجتمع الذي أبدع هذه الحضارة؟! إن ابن خلدون يقطع في هذا الأمر فيقول: «فالدولة دون عمران لا تتصور ، والعمران دون الدولة والملك متعذر . .»(٣١) . .

وهل يتصور العقل أن تتصدى الأمة العربية لأشرس التحديات - التى بلغت حد تهديد الوجود ذاته - والتى دامت قرونا - من الصليبين . . إلى التتار . . إلى البيزنطيين - دون دولة ذات كيان متجسد في مؤسسات ؟!

وإذا جاز لناأن نضرب صفحاعن هذه التساؤ لات المنطقية البدهية.. فإننانستغرب من الدكتور الأنصارى - وهو الباحث الأكاديمى المرموق، والأستاذ الجامعى المتميز - أن تخلو أبحاثه عن الدولة فى تاريخنا العربى والإسلامى من مصدر واحد من المصادر العديدة التى أرخت لهذه الدولة ومؤسساتها ودواوينها الثابتة والمستمرة عبر تاريخنا الطويل!..

وإذا جاز لنا - فى حدود ما يسمح به المقام - أن نشير - مجرد إشارة - إلى هذا الميدان من ميادين مصادرنا التاريخية التى نجد فيها «معالم الدولة العربية الإسلامية» ، فإننا نقول :

<sup>(</sup>٣١) [المقدمة] ص ٢٩٨ .

● لقد بدأ جهاز الدولة الإسلامية الأولى - بالمدينة - في عهد النبوة - على نحو بسيط ، مناسب للمكان والزمان والحاجات . . ولم يكن لهذه الدولة الإسلامية ميراث يذكر من التراكم التاريخي في حهاز الدولة ومؤسساتها . . لكنها ، كي تفي بالحاجات والضرورات ، أقامت ما سماه الذين أرخوا لها «بالعمالات» و «التراتيب الإدارية» .

ولقد قام بجمع معالم هذه الدولة - من كتب السيرة والسنة والتاريخ - وأرخ لعمالاتها ووظائفها ، الخزاعى ، أبو الحسن على بن محمد بن موسى الخزاعى [٢١٠٠ - ٧٨٩ هـ ٢٠١١م] فى كتابه [تخريج الدلالات السمعية] . . ثم جاء رفاعة رافع الطهطاوى [٢١٦٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ م] فعرض لوظائف وعمالات ومعالم ومؤسسات هذه الدولة الإسلامية الأولى ، انطلاقا من كتاب الخزاعى ، وذلك فى كتاب الطهطاوى [نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز](٢٣٠) . ثم جاء عبد الحى الكتانى ، فشرح كتاب الخزاعى ، وبنى عليه فى كتابه [نظام المحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية] - وهو مجلدان ، تبلغ صفحاتهما قرابة الألف صفحة (٣٣٠) . ثم حظيت معالم وعمالات ووظائف هذه الدولة النبوية بعدد من الدراسات المعاصرة ، من ووظائف هذه الدولة النبوية بعدد من الدراسات المعاصرة ، من خيل العديد من المؤلفات والأطروحات الجامعية التى قدمت عنها . .

<sup>(</sup>٣٢) رفاعة الطهطاوى [الأعمال الكاملة] جـ ٤ ص ٤٨١ - ٧٦٥ . دراسة وتحقيق د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

<sup>(</sup>٣٣) انظر هذا الكتاب - طبعة بيروت - دار الكتاب العربي (د .ت) .

فالدولة الإسلامية الأولى - التى تأسست فى جمعية عمومية وهيئة تأسيسية - فى بيعة العقبة - والتى ولدت على يدى هيئة دستورية منتخبة - هى مؤسسة النقباء الاثنى عشر - الذين عقدوا بيعة تأسيس الدولة نيابة عن الأوس والخزرج - هذه الدولة اكتملت لها العمالات والوظائف التى ناسبت الزمان والمكان . . ولها فى المكتبة العربية مصادر ومراجع تتحدث عن معالمها وعمالاتها . .

• فلما كانت فتوحات خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ، التى خرجت بالدولة الإسلامية - دولة الخلافة ، التى مثلت إبداعا إسلاميا غير مسبوق (٢٤) - من نطاق بساطة شبه الجزيرة العربية ، ورثت هذه الدولة كل وأغنى تراكمات الخبرات الحضارية الإنسانية في الدولة ومؤسساتها ودواوينها ونظم إداراتها . . ورثت في البحلية - «تدوين الدواين» عن الفرس والروم . . ثم أقرت واحتمدت مؤسسات الإدارة ونظم الحكم - أي آليات الإدارة والحكم - المتوارثة والمستقرة في حضارات مصر والشام وفارس وبلاد الرافدين ، بعد أن جعلت مرجعيتها القانونية والفلسفية

<sup>(</sup>٣٤) يقسم ابن خلدون نظم الحكم ، من حيث فلسفاتها ومرجعياتها ، إلى :

۱ - «دولة القهر والتغلب والغرض والشهوة»- أى ملك الاستبداد والجبرية-..

٢ - و «دولة السياسة العقلية» - أى ذات المرجعية العقلية والدنيوية -اللادينية - . .

٣ - و «دولة الخلافة ، التي تحمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها ، عند الشارع ، إلى اعتبارها بصالح الآخرة ، فهى في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع ، في حراسة الدين وسياسة الدنيا بالدين» - [المقدمة] ص ١٥١ ، ١٥١ .

شريعة الإسلام وفقه المعاملات الإسلامي . . فكانت الدولة الإسلامية ، منذ ذلك التطور ، استمرارا لمؤسسات ودواوين ونظم الحكم والإدارة في هذه الحضارات القديمة والعريقة ، ولم تكن انقطاعا ولا قطيعة مع «الدولة » بأى حال من الأحوال . . بل لقد مثلت الدولة الإسلامية استمرارا – وليس انقطاعا – حتى في «كوادر» الإدارة ، والقائمين على مؤسسات الدولة من أهل تلك البلاد . . حتى ليقول مستشرق حجة مثل «آدم متز» [١٢٨٦ – ١٣٣٥هـ ١٨٦٩ ليول بلاد ين يحكم ون بلاد الإسلام» (٥٠٥) . .

ولقد سجلت مصادر التاريخ الإسلامي هذا التطور في جهاز الدولة ومؤسساتها ، عندما تحدثت عن «تدوين الدواوين» . . التي هي مؤسسات الحكم والإدارة ، في عهد عمر بن الخطاب (٢٦) .

● وعلى امتداد تاريخ الدولة – أو الدول – الإسلامية ، في العصور الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية ، تراكمت الخبرات الإدارية للدولة الإسلامية – دولة الخلافة . . والدولة السلطانية – وترسخت مؤسساتها ودواوينها . . وعرف جهاز الدولة – إلى جانب «الوزارة» ومنصب «المشير» – الذين ظهرا في العصر العباسي الأول – دواوين «الخراج» . . و «الجند» . . و «الأحباس – الأوقاف –» . . و «القضاء» مع منصب قاضي

<sup>(</sup>٣٥) [الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري] جـ ١٠٥ . ترجمة : د . محمد عبد الهادي أبو ريدة . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

<sup>(</sup>٣٦) انظر ، على سبيل المثال ، ابن سعد [كتاب الطبقات الكبير] جـ ٢ ق ١ ص ٢١٢ ، ٢٦٦

القضاة - الموازى لوزارة العدل في عصرنا الراهن - . . و «العمائر» . . و «العسبة» . . و «الصناعة» . . و «الأسطول» - العمارة - . . و «الإنشاء» - الكُتّاب - . . و «الزكاة» . . و «الجوالي» - الجزية - . . و «المواريث» . . و «الالتخور» . . و «الكسوة» . . و «اللالتزام» . . و «الالتزام» . . و «الالتزام» . . و «الالعيار» . . و «دار الضرب» - سك العملة - . . و «الأحكار» . . و «دار الطراز» . . و «ديوان صندوق النفقات» - الأهراء - . . و «ديوان عجز المال» . . و «ديوان الفواضل» - المتوفر - . . و «ديوان أرباع الكيل» - المكاييل - . . الخ . . وهي مسؤسسات للدولة، دانمة وثابتة ، لها سجلاتها ونظمها و تقاليدها، والقائمون عليها، ولا تتغير بما يعدث في قمة الدولة - الخلافة و السلطنة - من تغيرات . .

● أما دول وسلطنات العسكر المساليك ، التي رآها الدكتور الأنصارى قطيعة مع الدولة والحضارة ، فلقد كانت على العكس من ذلك تماما ، لأن الطبيعة العسكرية لسلاطين المماليك ، وحدة المخاطر العسكرية التي واجهتها دولهم قد جعلتهم أكثر اهتماما بنظم الدولة ودواوينها ومؤسساتها . . ولو أن الدكتور الأنصارى رجع إلى المصادر التي أرخت للولاة والقضاة . . والوزارة . . والخطط . . لرأى معالم مؤسسات الدولة ودواوينها في تلك العصور . . بل ولرأى مؤلفات متخصصة في [قوانين الدواوين] (٢٧) . . ولقد كان

<sup>(</sup>۳۷) انظر - للكندى- [الولاة والقضاة] طبعة بيروت سنة ۱۹۰۸م . - وللمقريزى - [الخطط] طبعة دار التحرير . القاهرة . - ولابن الصير في - [الإشارة إلى من نال الوزارة] - طبعة المعهد الفرنسي . القاهرة سنة ۱۹۲۶م . - ولابن عاتى - [قوانين الدواوين] تحقيق : د . عزيز سوريال . طبعة القاهرة سنة ۱۹۶۳م . - ولابن الطقطقى - [الفخرى في الآداب السلطانية] طبعة القاهرة سنة ۱۹۶۵م . - وللدكتور عبد المنعم ماجد- [نظم دولة سلاطين المماليك] طبعة سنة ۱۹۲۷م .

يكفى النظر فى موسوعة القلقشندى [صبح الأعشى فى صناعة الإنشا] -- أو حتى فى فهارسها! -- ليعلم الدكتور الأنصارى أن «الديوان» - فى ظل تلك الدول - قد أصبح عنوانا «على المكان الذى يعمل فيه أرباب الأقلام .. ثم أطلق على جميع فروع الإدارة .. ولقد كان عماد الدواوين فى زمن المماليك طبقة الكتاب، وذلك كما كان الحال دائما فى مصر منذعهد الفراعنة، فهولاء عماد النظام البير وقراطى .. وكان التنظيم الديواني فى عهد المماليك أكثر تركيزا، لطبيعة السلاطين العسكرية، فكانت توجد الدواوين بالقلعة، وعرفت باسم «الدواوين السلطانية» . .

أى أن الدولة الإسلامية قد ورثت خبرات ومؤسسات أعرق وأقدم دول الدنيا . . وزاد رسوخ مؤسسات ودواوين هذه الدولة في العبهد المملوكي . . ولم تعرف هذا الانقطاع الذي تحدث عنه الدكتور الأنصاري . .

ولقد كان من هذه الدواوين في ظل سلطنات المساليك -: ديوان الأحجساس - الأوقاف - . وديوان الأحوال . وديوان الاستدارية . وديوان الاستيفاء . وديوان الأسرى . وديوان الأسطول . وديوان أسفل الأرض . وديوان الأسواق . وديوان الإقطاع . وديوان الأمراء . وديوان الأملاك . وديوان الأمور . وديوان الإنشاء . وديوان التحقيق . وديوان الشغور . وديوان الجهاد . و ديوان الجيش . وديوان الخاص . الجهاد . و ديوان الجيش . وديوان الكسوة . وديوان الرسائل . وديوان الرسائل . وديوان الرواتب . وديوان السلطان . وديوان صاحب الإقطاع . .

وديوان العدل . . وديوان القضاء . . وديوان الكراع . . وديوان المال . . وديوان المعمور . . وديوان المال . . وديوان المجلس . . وديوان المرتجع . . وديوان المواريث المفرد . . وديوان المقطع . . وديوان المكاتبات . . وديوان المواريث الحشرية . . وديوان النظر . . وديوان الهلالي . . وديوان الوزارة (٢٨) . . الخ . . .

تلك إشارة إلى الدولة . . وتعدد وثبات ورسوخ وظائفها وعمالاتها ودواوينها ، على امتداد تاريخ الإسلام . . والتى - مع ذلك - تجاهل الدكتور الأنصارى حقيقتها ، ولم يكلف نفسه - وهو الأستاذ الجامعي القدير - أن يعرج على مصدر واحد من عشرات المصادر التي عرضت لها ولدواوينها بالتأريخ! . .

\* \* \*

<sup>(</sup>٣٨) انظر اختصاصات هذه الدواوين ، وتاريخ نشأتها في : القلقشندى [صبح الأعشى في صناعة الإنشا] طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة . وانظر : محمد على البقلى [التعريف بمصطلحات صبح الأعشى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤م .

## ♦ (القطيعة مع السياسة

ويستشهد الدكتور الأنصارى بما لا يشهد له ، عندما يوظف كلمة ابن خلدون: «فبعدت طباع العرب لذلك عن سياسة الملك» وهي التي قالها ابن خلدون في عرب البداوة المتوحشة - . . عندما يوظفها في دعوى قيام القطيعة بين الأمة العربية وبين السياسة بإطلاق . . فيتهم العرب بتدنى إنتاجهم في السياسة كعلم وفن ، ويتهم علماء الإسلام - من حجة الإسلام الغزالي [٥٠٠ - ٥٠٥ هـ الاسلام - ١١١١ م] إلى شيخ الإسلام ابن تيمية [ ١٦٦ - ٧٢٨ هـ ١٣٢٢ - ١٣٢٨ م القطيعة مع السياسة وعالمها . . فيقول :

«إن الحضارة الإسلامية غنية بعطائها الروحى والعلمى والإنسانى، فيماعداعطاء السياسة.. والشأن السياسى والإنجاز السياسى، الذى يبدو أضعف جوانبهاعلى الإطلاق.. وإن ظاهرة القطيعة بين الأمة ومفكريها من ناحية، وبين السياسة وعالمهامن ناحية أخرى، لاتقتصر على محمد عبده - الذى لميفعل - [عندما استعاذ بالله من السياسة] - أكثر من تأكيده استمرارية الماضى في الحاضر - وإنما تمتدعمقا في جذور التاريخ العربي الإسلامي. فقبل ذلك بقرون عدة كان حجة الإسلام الإمام الغنز الى يوصى ولده المريد: «ألا تخالط الأمراء والسلاطين ولا تراهم، لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة».. وبعد الغز الى بثلاثة قرون نجد ابن تيمية ينبه ويحذر بالمرارة ذاتها، عبر هذه المفارقة الصارخة - لكن الصادقة -: «إن الله

ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة».. أما محمد عبده فقد وجد في أوربا إسلاما بلا مسلمين، بعد أن وجد في الشرق مسلمين بلا إسلام- بحسب تعبيره-..» (٢٩).

ولو أن الدكتور الأنصارى قد اتهم «الدولة المستبدة» - فى تاريخنا القديم والحديث والمعاصر - بتحجيم الإبداع فى السياسة ومعاداة الفكر السياسى - وخاصة السياسة الدستورية ، المنظمة لعلاقات الحكام بالحكومين - لكانت لتهمته وجاهتها . . أما أن تكون تهمته موجهة «للحضارة الإسلامية.. وإلى الأمة ومفكريها.. قديما وحديثا» بضعف العطاء فى السياسة . . بل وبالقطيعة مع السياسة وعالمها . . فلا بد من محاورته حول مدى الموضوعية والصدق فى هذا الاتهام . .

- فليس صحيحا أن عطاء الحضارة الإسلامية في الفكر السياسي قليل أو ضعيف . . ذلك أن التأليف في الفكر السياسي قد بدأ في الحضارة الإسلامية بمباحث الإمامة والخلافة . . ولقد ظلت هذه المباحث لعدة قرون تأتى ضمن التأليف في «علم الكلام» ، وذلك مجازاة للشيعة الذين جعلوا الإمامة من مباحث أصول الاعتقاد . . فعلى الذين يبحثون عن تراثنا السياسي في تلك القرون الأولى ألا يغفلوا مباحث الإمامة والخلافة في تراث علم الكلام . .
- ●ومنذ أن استقلت مباحث السياسة والأحكام السلطانية -كفن مستقل - بالتأليف - في عصر الماوردي [٣٦٤ - ٤٥٠ هـ ٩٧٤ -

<sup>(</sup>٣٩) [تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية] ص ١٨،١٧ .

١٠٥٨ م ] - أصبحت لدينا - في التراث السياسي- ثروة ضخمة في هذا الميدان . .

وإذا كان دمار مكتبات بغداد والشام ، في ظل الاجتياح التترى ، قد ذهب بكثير من كنوز تراثنا- ومنه التراث السياسي- وإذا كانت مخطوطات التراث العربي- والتي يزيد عددها عن ثلاثة ملايين مخطوطة- لا تزال موزعة في مكتبات المعمورة ، دون أن يكون لها فهرس واحد يحصرها ، ويعين على التحديد الدقيق لحجم التراث السياسي فيها . . فإن باحثا واحدا- هو الدكتور نصر محمد عارف - قد أحصى - [في مصادر التراث السياسي الإسلامي] أكثر من ثلثمائة مصدر ، لم يطبع منها سوى سبعة ! . . وهو يعترف بأنه لم يبلغ عشر معشار الاستقراء لمصادر هذا التراث ال. . لذلك ، فإن الحكم على الحضارة والأمة والمفكرين بالقطيعة مع السياسة وعالمها هو قول إن جاز لكتاب الصحف السيارة ، فهو غير جائز بالنسبة لمفكر مرموق مثل الدكتور الأنصاري . .

ثم إن استشهاد الدكتور الأنصارى بما استشهد به من عبارات
 حجة الإسلام الغزالى وشيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد
 عبده ، لا يشهد له . . بل يشهد عليه !

فنصيحة الغزالى لمريده ألا يخالط الأمراء والسلاطين ، لأن رؤيتهم ومجالستهم آفة عظيمة . . هي - هذه النصيحة - «موقف سياسي» ، وليست قطيعة مع السياسة ، لأنها دعوة لاستقلال

<sup>(</sup>٠٤) [في مصادر التراث السياسي الإسلامي: دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل] طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي. واشنطون . سنة ١٩٩٤م .

العلماء عن الأمراء ، وحرص على ألا تستوعب «الدولة» رموز «الأمة» . . والمقاطعة - في عصور الجور والاستبداد -موقف سياسي - بل «وثورى» - دفع ثمنه أبو حنيفة [٨٠ - ١٥٠ هـ ١٥٠ - ٢٦٧م] ومالك [٩٣ - ١٧٩هـ ٢١٢ - ٧٩٥ م] والإمام أحمد [١٦٤ - ٢٤١هـ ٢٨٠ - ٥٨٥م] ومواكب غفيرة العدد من الأئمة والعلماء ، الذين رفضوا أن يكونوا «فقهاء السلاطين» ، وأثروا أن يكونوا قادة الأمة . . .

وكذلك الحال مع كلمات ابن تيمية عن العدل الذى يطيل عمر الدولة ، ولو كانت كافرة ، والظلم الذى يودى بالدولة ، حتى ولو كانت مؤمنة . . إنها كلمات فى الحكمة السياسية ، تتحدث عن السنن والقوانين التى تعيش بها النظم والدول أو التي تعجل بنهاياتها . . وليست - كما ظن الدكتور الأنصارى مروبا من السياسة أو قطيعة معها . . ثم ، هل يعقل أن يكون ابن تيمية ، الذى كتب المطولات فى السياسة - السياسة الشرعية . . والحسبة - والذى مارس الجهاد السياسي العملى ، وليس فقط الفكرى . . هل يعقل أن يقال عنه إنه قد أقام وليس فطيعة مع السياسة وعالمها . .

ونفس الشيء ينطبق على الشيخ محمد عبده . . الذي كوّن - مع أستاذه الأفغاني- أول حزب سياسي في تاريخ الشرق الحديث- «الحزب الوطني الحر» . . والذي كان نائبا لرئيس تنظيم «العروة الوئقي»- وهو تنظيم سياسي سرى أممي إسلامي - . .

والذى كان واحدا من أبرز قادة الثورة العرابية [١٢٩٨ هـ ١٨٨١م]
- أولى ثورات الشرق فى العصر الحديث . . والذى تحمل السجن والنفى بسبب السياسة . . بل وكتب- وهو يترجم لحياته- عن أن غايات حياته قد اجتمعت فى ثلاثة أهداف :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد . .

والثاني: إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير..

والثالث: هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدل على الحكومة . . فالحاكم ، وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته ، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل (١١)» . .

وإذا كان ما نسبه الدكتور الأنصارى للأستاذ الإمام من مقولة أنه وجد فى أوربا إسلاما بلا مسلمين ، ووجد فى الشرق مسلمين بلا إسلام . . هى من «الأخطاء الشائعة» التى لم يقلها محمد عبده – بل كان فكره على النقيض من معناها – . . فإن لعنه «للسياسة» وأصولها ومشتقاتها ، إنما كان لعنا للسياسة المكيافيلية . . سياسة المناورات اللا أخلاقية ، التى سادت بمصر عقب احتلال الإنجليز لها . . ويومئذ «طلق» محمد عبده هذا اللون من «السياسة» ، واشتغل بصناعة التجديد الفكرى ، وتربية الصفوة والنخبة ، اعتقادا منه أن ذلك هو الذى سيثمر – ولو بعد

<sup>(</sup>٤١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٢ ص ٣١١،٣١٠ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م .

السنين الطوال- تحقيق الهدف السياسى من مقاصد مشروعه الفكرى الثلاثة . . وعن هذا الأمر قال : «أماأمر الحكومة والمحكوم، فتركته للقدريقدره، وليد الله بعد ذلك تدبره، لأننى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال، فهدذا الغرس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن. والله المستعان (۲۱) » . . فهو لم يطلق السياسة – بالمعنى الواسع والجوهرى للسياسة – وإنما اشتغل بالغراس والبناء في «صناعتها الثقيلة» ، غير متعجل لقطف الثمرات . . ومع ذلك ، فلقد عاش تلك الحقبة من حياته مشتبكا مع الخديوى . . ومع الاستبداد . . والجمود . . إلى أخر قوى وميادين السياسة في ذلك التاريخ . .

فهل ، بعد ذلك ، يجوز أن نتهم الحضارة والأمة والعلماء بهجران السياسة ، والقطيعة معها ومع عالمها ، وضعف الإبداع فيها ، لا لشيء إلا لتوظيف كلمة لابن خلدون في غير ما قيلت له ؟!..

لا أظن ذلك جائزا بأى حال من الأحوال! . . .

\* \* \*

<sup>(</sup>٤٢) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٣١٢ .

## قدر العجز عن حماية الذات.. والتبعية للأغيار

واسترسالا في منهاج «تحليل واقعنا التاريخي والحديث والمعاصر بمنهاج العاهات المزمنة»! . . ذهب الدكتور محمد جابر الأنصاري إلى قمة تكريس الهزيمة ، عندما حكم على العرب - كأمة - وعبر كل تاريخها - بالعجز عن حماية الذات ، وطلب أو قبول الحماية من الأغيار - المماليك الرعاة قديما - والاستعمار الأجنبي في واقعنا الحديث والمعاصر - فكأن العجز- برأيه - جبِلَّة في صنف العرب . . عن بناء الملك وسياسة الدولة ، لأنهم بدو . . وعجز عن حماية الحواضر إذا سكنوا هذه الحواضر . . وفي ذلك يقول :

(إن أخطر نقاط الضعف الأساسية في الحاضرة، وفي بنية المجتمع الحضرى الأهلى العربي - رغم كونها بنية تنتج الحضارة وتحتضن الدين والعلم، وتحترف الصنائع والإنتاج الاقتصادي، وتمثل الاستقرار والعلم، وتحترف الصنائع والإنتاج الاقتصادي، وتمثل الاستقرار الاجتماعي الفعال (العصبية بالمفهوم الخلدوني) للدفاع عن نفسها وعن مقوماتها الحضارية وإقامة سلطتها السياسية وتأمين تماسك وتضامن اجتماعي «مدني» تكون أساسالتوليد السلطة السياسية والقدرة العسكرية الذاتية. وماز التظاهرة هذا «الغيباب» لقوة التضامن «المديني - المدني» في المجتمع الأهلي الحضري العربي تمثل أخطر نقاط الضعف في الوضع السياسي للمدن العربية ومجتمعاتها الحضرية المدينية، التي لا تستطيع فرض إرادتها السياسة الذاتية، وتبقي محتاجة غالباإلى «قوة» حماية وسيطرة من خارجها، سواء كانت عصبية

البادية، أو تماسك المجتمع الريفى، أو قوة الحماية الخارجية، التى تمثلت قديما فى السلطة الرعوية الآسيوية التركية، وتمثلت حديثا فى القوة الأوربية الحامية .. فالمجتمع الأهلى المدينى العربى يعانى مايشبه الإعاقة المزمنة - [كذا] - والعجز التاريخى - [كذا] فى التعبير الذاتى عن إزادته السياسية وعن توليد قوة تضامن سياسية خاصة به فى وجه القوى والعصبيات الأخرى فى المجتمع العربى ذاته، فضلا عن خضوعه لقوى المحماية الأجنبية، أو تبعيته لها، ماضيا وحاضرا .. (٢٤)» .

ولأن القول بعجز الجحتمع العربى عن حماية ذاته ، إلى الحد الذى «يشبه الإعاقة المزمنة، والعجز التاريخي» وفق عبارة الدكتور الأنصارى - حتى لقد أصبحت الحماية الأجنبية - من المماليك قديما ومن الاستعمار الأوربي حديثا - هي القاعدة والقانون في الحياة العربية !! . . لأن هذا القول شديد الغرابة ، وبالغ الشذوذ . . فلقد ذهب الدكتور الأنصارى - هو أيضا - يطلب الحماية من الأخرين ، حتى يؤيدوه في دعواه ! . .

لقد ذهب ليحتمى بابن خلدون ، فظلمه ظلما عظيما ، وذلك عندما قال :

«لقد شخص ابن خلدون سرعة تساقط الدول في الفضاء العربي الإسلامي ، ومدى عجز المجتمع الأهلي الحضرى العربي، وعجز الحواضر ومناطق العمران العربية عن حكم نفسها بنفسها وتوفير الدفاع الذاتي عن وجودها، بحيث أصبحوا «عيالا على غيرهم في المدافعة والممانعة.. فقد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال.. حتى صار ذلك خُلُقًا يتنزل منهم منزلة الطبيعة».

<sup>(</sup>٤٣) [تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية] ص ٤٩ ، ٨٥ .

وهذا التعبير الخلدوني اللاذع نجده يمتد ليصور واقع التبعية العربية في عصرنا، حيث ماز الت الكيانات العربية المعاصرة «عيالا على غيرها» في الاستراتيجية والتقانة (التكنولوچيا) والاقتصاد، ممايشير إلى أن للتبعية

جذورا في التاريخ أقدم من ظاهرة الإمبريالية والاستعمار <sup>(11)</sup>»!! . .

وبهذا التشخيص ، الذى ينسبه الدكتور الأنصارى – أو يستعين عليه بابن خلدون ، يضعنا أمام «عاهة مزمنة» رابعة ، هى فى رأيه من العقبات الطبيعية التى تحول بين العرب وبين الاستقلال عن الأغيار . . فهم قديما وحديثا – «عيال على غيرهم» و «عجزهم التاريخي يشبه الإعاقة المزمنة» . . فلا لوم – إذن – ولا تثريب على الإمبريالية والاستعمار ، بل ربما استحقا الشكر والثناء لحمايتهم العرب المعاقين دائما وأبدا ، خصوصا مع الافتقار إلى المماليك الرعاة فى العصر الحديث! . .

فهل هذا صحيح؟ . . وهل يستطيع الدكتور الأنصارى الاحتماء – في هذا الرأى – بابن خلدون ؟! . .

إن مشكلة الدكتور الأنصارى مع هذا الذى نسبه إلى ابن خلدون- من عجز العرب المتحضرين عن حماية حواضرهم- كامنة في عدم إدراكه لمراد ابن خلدون بمصطلح «الحضارة والتحضر»، فمانسميه اليوم «حضارة» هو «العمران» في مصطلح ابن خلدون..أما «الحضارة» عنده فهي الترف والرفه والاستهلاك الزائد عن الإنتاج، والعزوف عن العمل المنتج.. أي النعومة والرخاوة.. حتى أنه يسمى هذه «الحضارة»: «سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة».. فهي غير «العمران»، بل إنها مرحلة تراجع العمران.. ولذلك، فإن العرب- بل وكل أمة- عندما يدخلون طور الترف والرخاوة والرفاهية والنعومة، لابد وأن يصابوا

<sup>(</sup>٤٤) المرجع السابق . ص ٢٠، ٥٠ .

بالعجز عن حماية أوطانهم وحواضرهم ومجتمعاتهم.. هذا هو المفهوم - للحضارة - الذى لم يدركه الدكتور الأنصارى عندما قرأ ابن خلدون!.. ولو أنه تأمل تعريف ابن خلدون للحضارة بأنها: «أحوال عادية زائدة على الضرورى من أحوال العمران.. هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة.. وذلك إنما يجيء من قبل الدولة، لأنها تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها.. فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخر بمها في أهل الدولة، ثم فيمن تعلق بهم.. إن الحضارة هي نهاية العمران، وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر، والبعد عن الخير.. "(13).

فابن خلدون يتحدث عن عجز العرب «المترفين» ، وليس عن عجز العرب «المتحضرين» - بمفهومنا المعاصر للحضارة والتحضر يتحدث عن عجز مجتمعات «الشر والفساد» وليس عن عجز المجتمع «الأهلى الحضرى» - كما فهم الدكتور الأنصارى - . . ويزيد هذه الحقيقة وضوحا نص ابن خلدون الذي يقول فيه :

«فأهل الحضر – [أى الترف . . والشر والفساد] – قد ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدَّعة ، وانغمسوا فى النعيم والترف ، ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولت حراستهم (٢٠١) بينما أهل الخشونة ليسوا كذلك «فإذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع ، وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد» (٧٠٠) .

<sup>.</sup> ٩٩) [المقدمة] ص ٢٩٢ ، ٢٩٠ ، ٩٨ . ٩٨ . (٤٦) المصدر السابق . ص ٩٩ .

<sup>(</sup>٤٧) المصدر الاسبق . ص ١١٥ .

<sup>(</sup>٤٨) [تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة] ص ٥١ - والدكتور الأنصاري يشير إلى كتاب محمد حسنين هيكل [الانفجار: قصة حرب يونيو سنة ١٩٦٧ م] ص ٨٠٣ - ٨٠٦ طبعة مركز الأهرام للترجمة والنشر. القاهرة سنة ١٩٩٠.

هذا هو فكر ابن خلدون ، واضح ومستقيم ، ليس فيه اعوجاج . .

وغير محاولة الاحتماء بابن خلدون . . يذهب الدكتور الأنصارى ليستشهد - على العجز العربى المزمن عن حماية الذات والمدافعة عنها - بالاستاذ محد حسنين هيكل . . فيقول :

"وربطاً لهذا الماضى - [الذى استشهد عليه بابن خلدون] - بالحضار ، فإن الدراسات التى أجريت فى مصر لهزيمة يونيو سنة بالحضار ، فإن الدراسات التى أجريت فى مصر لهزيمة يونيو سنة الأهلى العربى وبين مهام ومسئوليات الحرب كان ضمن الأسباب العميقة لهذه الهزيمة القومية الكبرى ، فحتى منتصف القرن العشرين لم يكن العرب قد تعرفوا بعد على فكرة الحرب (١٤٨)»!

فهل هذا صحيح؟ . . وهل هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ م سببها الانقطاع التاريخي الطويل بين العرب وبين الحرب ، التي لم يعودوا فيتعرفوا عليها إلا في منتصف العشرين ؟! . .

- لقد فتح العرب- تحت رايات الإسلام- في ثمانين عاما ،
   أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون .
- وحتى عندما تعسكرت الدولة ، وأصبح المماليك و «الغُزّ» هم القوة العسكرية الضاربة ، في مواجهة الصليبيين والتتار والبرتغاليين . . كانت «العامة» كما يقول المقريزي [٧٦٦ ٨٤٥ هـ ١٣٦٥ ١٣٥٥ التعبئة العامة ، وتزحف إلى أرض المعارك ، وتقاتل وتغيير على الأعداء أكثر وأشد من غارات الأجناد (١٤٤١ . . وذلك فضلا عن أن هؤلاء «العامة» هم الذير نهضوا بأعباء «اقتصاد الحرب» لعشرات السنين . .

<sup>(</sup>٤٩) انظر كتابنا [معارك العرب ضد الغزاة] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م ·

- ومنذ العقود الأولى للقرن التاسع عشر تكون الجيش المصرى من الفلاحين المصريين ، على عهد محمد على باشا [١١٨٤- ١٢٦٥ هـ ١٢٧٠ ١٨٤٩م] وأحرز الانتصارات الكبرى في ميادين الحروب مع القيصرية الروسية ، وعلى أرض اليونان وفي مياهها . . بل وضد الدولة العثمانية ذاتها . . وذلك فضلا عن حروب السودان والصومال والشام . . الخ . . الخ . .
- وفى القرن التاسع عشر حارب أهل الجزائر تحت قيادة الأمير عبد القادر الجزائرى [١٢٢٢ - ١٣٠٠ هـ ١٨٠٧ - ١٨٨٣ م] ضد فرنسا ، قرابة العشرين عاما - من سنة ١٨٣٠ وحتى سنة ١٨٤٨م . . .
- وليبيا السنوسية . . وسودان المهدية . . والريف المغربي . . حاربوا الاستعمار الأوربي بألوانه الختلفة : الإيطالي . . والإنجليزي . . والفرنسي . . والإسباني . . في القرنين التاسع عشر والعشرين . .
- كذلك حارب أهل الشام الاستعمار الفرنسى ، لإقامة الدولة العربية ، عقب الحرب العالمية الأولى . .
- وذلك فضلا عن الثورات الوطنية التي تفجرت ضد الاستعمار ،
   من أجل التحرر الوطني وحماية الذات . . والتي قدمت فيها الجزائر
   وحدها قرابة المليونين من الشهداء في ثماني سنوات! . .
- وليس صحيحًا أن هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ م كان سببها «الانقطاع التاريخي الطويل بين الأمة وبين الحرب» . . وإلا فهل يعقل معالجة آثار «الانقطاع التاريخي الطويل» في سنوات قليلة ، على النحو الذي حدث في أكتوبر سنة ١٩٧٣م ؟! . .

إن الجندى الذى حارب فى سنة ١٩٦٧م هو ذات الجندى الذى حارب فى سنة ١٩٦٧م . . وحتى الجنود «المؤهلات» - خسريجسو

الجامعات - الذين جندوا بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ م، كانوا هم أبناء الفلاحين - مثل إخوانهم المجندين الذين لم يحملوا «المؤهلات» ، لا فارق بينهم في الموقف القتالي ، والبسالة في الحرب ، والممانعة عن الوطن والذات . . وإنما الفارق الوحيد هو قدرة الجندي المتعلم على التعامل مع الأسلحة الحديثة والمتطورة والمعقدة . . فالجميع هم أبناء الفلاحين ، الذين يكونون أكثر من ٨٠ ٪ من تعداد الشعب المصرى . . والفارق بين حرب سنة ١٩٦٧ م وحرب سنة ١٩٧٣ م هو فارق القيادة ، والأخذ بسنن وقوانين الانتصار ، أو التفريط في هذه السنن والقوانين . . ولا علاقة لأى من ذلك بخرافة «الانقطاع هذه السنن والقوانين . . ولا علاقة لأى من ذلك بخرافة «الانقطاع التبرير للهزيمة النفسية ، التي يتعلق بها دعاة «العجز الذاتي المزمن» التبرير للهزيمة المزمنة للآخرين»! . .

فأين هى «الإعاقة المزمنة والعجز التاريخي عن الممانعة عن الذات . . والتبعية والخضوع للأجنبي ، عالة على الأغيار» . . تلك التي جعلها الدكتور الأنصاري القانون والقاعدة والجبلة الطبيعية للعرب عبر التاريخ ؟ ! . .

\* \* \*

## ♦♦ دولة العجز القُطْرى ♦♦

وتأسيسا على هذه العاهات المزمنة:

«عاهة الصحراء»: العقبة الطبيعية الجغرافية ، المانعة ، تاريخيا ، من تكوين النسيج الاجتماعي العربي ، ومن ثم الدولة والأمة والاستمرار الحضاري . .

و «عاهة البداوة»: الجبلة العربية ، التي تجعل العرب- كل العرب - أبعد الناس عن سياسة الملك وبناء الدولة . .

و «عاهة القطيعة مع الدولة»: الثابتة والمستمرة ، التي لم يعرفها العرب ، وإنما عرفوا الدولة الهلامية ، الدائمة الانحلال . .

و «عاهة القطيعة مع السياسة»: التى أفقرت الحضارة والأمة في هذا الفن الذى لا غنى عنه لإدارة الدولة وبناء الملك وسياسة العمران..

و «عاهة القطيعة مع الحرب»: التي أعجزت العرب ، تاريخيا ، عن الممانعة والدفاع عن الذات والأوطان ، فكانت التبعية للأجنبي ، وطلب الحماية من الآخرين ، قدرهم المحتوم . .

تأسيسا على هذه «العاهات المزمنة» و «الإعاقات الطبيعية» و «العجزالتاريخي» ، يقف الدكتور الأنصارى عند «الدولة القطرية» ، باعتبارها أقصى ما يمكن أن يتطلع إليه العرب من أفاق التقدم والتلاحم والتوحيد . . فالدولة القطرية – عنده – «هي الظاهرة والحقيقة السياسية الكبرى في حياة العرب.. إنها، بمنظور الواقع الفعلى للتاريخ والمجتمع، ظاهرة «توحيدية» للتجزؤ الذرى

والمجتمعى، الذى كان قائما فى ظل الإطار الفضفاض للإمبراطورية العثمانية، وفى ظل التأرجح بين حضور السلطة المركزية المنظمة وغيابها فى معظم المجتمعات العربية قبل قيام الدولة القطرية... فهى تمثل أول محاولة عربية حديثة فى «الوحدة» وفى «الدولة».. إن العرب يعانون - وعيا - هاجس «التجزئة»، بينماهم يعيشون - فعلا -

فوق واقع يتوحد (لأنه كان أكثر «تجزئة» من قبل بمعيار الوحدة العضوية لأى مجتمع موحد . . . (٥٠)!! . . .

هكذا تحدث الدكتور الأنصارى عن الدولة القطرية في واقعنا العربى المعاصر . . ونسى أن هذه الدول القطرية كسانت، في الإمبراطورية العثمانية، ولايات متمايزة، لكنها لم تكن تقطع ولا تجزئ «دار الإسلام» بنظام «الجنسية» الذي أخذته عن الدول القومية الأوربية - والتي تتجاوزه هذه الدول القومية الأوربية، في ظل وحدتها الحالية.. فدولنا القطرية انتكاسة عن الوضع العثماني في هذا الميدان.. وذلك فضلا عن أن الكثير من هذه «الدول» القطرية لا يملك شيئا من شروط مكونات ومقومات «الدولة».. فالبئر النفطية.. والعمالة الفلبينية.. والقاعدة العسكرية الأمريكية، لا يمكن أن تكون مقومات لأي دولة من الدول، بأي مقياس من المقاييس!..

ولذلك . . ولأن هذه «الدولة القطرية» كانت النموذج الوحدوى الذى رآه الدكتور الأنصارى غاية المراد من رب العباد . . «فهى الظاهرة الوحدوية، والحقيقة السياسية الكبرى في حياة العرب» رأ الدكتور الأنصارى يدافع عن عجز هذه الكيانات القطرية ، جاعلا ، هذا العجز ثمرة لعاهة طبيعية مزمنة في المكان- هي الصحراء - ولعاهه

<sup>(</sup>٥٠) [تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية] ص ١١.

طبيعية مزمنة في الإنسان – هي البداوة – . . حتى لقد جعل من الاستعمار الغربي لوطننا العربي «التحرير» لهذا الوطن من السيطرة الرعوية التركية .. وجعل من جلاء الاستعمار الغربي عن بلادنا «انكشافا للضعف الذاتي المتأصل في العرب من جديد » ! . .

وحتى لا نتهم بأننا ننسب للرجل ما لم يقل ، نسوق كلامه كاملا . . فهو يقول :

«ويلاحظ- في مفارقة عجيبة- أن الحواضر والمدن العربية ومجتمعاتها الأهلية المدينية لم تخرج من تحت السيطرة الرعوية إلا بوجود القوة الأوربية «الاستعمارية» (١٥) في البلدان العربية، حيث أدى الوجود الحمائي إلى «تحررها» من السيطرة الرعوية التركية.. فتمكنت المدينة العربية، في تلك الفترة ذات الطابع «الاستعماري» من إنشاء المدارس والجامعات الحديثة، وتطبيق النظم العصرية، وتكوين الأحزاب السياسية «المدينية» ذات اللون الليبرالي.. وأنجبت العديد من المفكرين المجددين والنهضويين.. ولكن، ماأن رحلت «القوة» الاستعمارية الحامية، واحتاجت المدينة العربية و مجتمعها المديني إلى «قوة» ذاتية تولد السلطة وتؤمن الدفاع، حتى انكشف الضعف الذاتي المتأصل من جديد في هذه البنية المدينية العربية (٢٥)..»!

فالاستعمار الأوربى - برأى الدكتور الأنصارى - قد مثل بالنسبة للعرب «حركة التحرير» من السيطرة الرعوية التركية . . ولم يمثل تعويقا لتقدمنا ونهوضنا ، على امتداد أكثر من قرنين من الزمان . . وإنما كان مصدر التقدم والتجديد والنهضة في بلادنا . .

<sup>(</sup>٥١) ووضع علامات التنصيص حول كلمة «الاستعمارية» من عنده!...

<sup>(</sup>٥٢) [تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية] ص ٥٥.

وها نحن - بعد رحيل قواته الاستعمارية المحررة والحامية لنا، نكتشف عجزنا الذاتي المزمن عن حماية ذاتنا وبلادنا من جديد!! . . فهل هذا مقبول ؟! . .

\* \* \*

إن أخشى مانخشاه هو أن تخدم الاجتهادات الخاطئة- وهى مشروعة..بل ويؤجر عليها أصحابها - أن تخدم هؤلاء الذين يعملون على تكريس الهزيمة لدى الأمة.. والإجهاز على آمالها في النهوض والانعتاق من المأزق الحضارى الذي تعيش فيه..

وهناك فارق كبيربين «تفسير الواقع» للخروج من عثراته، وبين تأبيد هذه العثرات، بتصويرها في صورة العاهات المزمنة والإعاقات الطبيعية التي جعلت العجز تاريخيا ومزمنا وطبيعيا..

وحتى لا نظلم الدكتور محمد جابر الأنصارى، فلابد من التنبيه على أن هذا النقد الصريح الذى قدمناه فى هذه الصفحات ليس موجها إلى مجمل مشروعه الفكرى.. فللرجل مشروع فكرى متميز، نتفق معه فى العديد من القضايا والأفكار والإبداعات التى قدمها فيه..

لكننى آثرت - وهذا قدرى - أن أتخذ موقفانقديا مخلصا وصريحا من القسمة التى رأيتها خطرة وضارة فى هذا المشروع الفكرى الكبير، مفضلا الموقف النقدى على موقف المجاملة والتقريظ.. وذلك عملا بمأثور اتنا التراثية: «رحم الله امرء الهدى إلى عيوبى».. و «المؤمن مرآة أخيه».. وإيمانا منى بأن المفكرين الكبار - والدكتور الأنصارى واحد منهم - إنما يرحبون بالنقد العلمى - لأنه علم بنّاء - وذلك أكثر ما يرحبون بالثناء.. وخاصة إذا شابته شو ائب المجاملة والنفاق..

والله من وراء القصد.. منه نستمد العون والتوفيق

## صدرمن سلسلة (في التنوير الإسلامي)

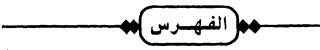
د . محمد عمارة	١ – الصحوة الإسلامية في عيون غربية .
د . محمد عمارة	٢ - الغرب والإسلام .
د . محم <i>د ع</i> مارة	٣ - أبو حيان التوحيدي .
د . سید دسوق <i>ی</i>	٤ - دراسة قرآنية في فقه التجدد الحضاري .
د . محمد عمارة	٥ - ابن رشد بين الغرب والإسلام .
د . محمد عمارة	<ul> <li>٦ - الانتماء الثقافي .</li> </ul>
د . زينب عبد العزيز	٧ - تنصير العالم .
د . محمد عمارة	٨ – التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات .
د . محمد عمارة	٩ – صراع القيم بين الغرب والإسلام .
	١٠ - د . يوسف القرضاوي : المدرسة
د . محمد عمارة	الفكرية . والمشروع الفكرى .
د . سید دسوقی	١١ - تأملات في التفسير الحضاري للقرآن الكريم .
د . محمد عمارة	١٢ – عندما دخلت مصر في دين الله .
د . محمد عمارة	١٣ - الحركات الإسلامية رؤية نقدية .
د . محمد عمارة	١٤ – المنهاج العقلي .
د . محمد عمارة	١٥ – النموذّج الثقافي .
د . صلاح الصاوي	١٦ – منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق .
د . محمد عمارة	١٧ – تجديد الدنيا بتجديد الدين
	١٨ - الثوابت والمتغيرات في اليقظة
د . محمد عمارة	الإسلامية الحديثة .
د . محمد عمارة	١٩ – نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم .
د . محمد عمارة	٢٠ - التقدم والإصلاح بالتنوير الغربي
د ، عبد الوهاب المسيري	٢١ - فكر حركة الأستنارة وتناقضاته .
•	

٢٢ - حرية التعبير في الغرب من سلمان د . شريف عبد العظيم رشدي إلى روجية جارودي. د . محمد عمارة ٢٣ - إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين. د . محمد عمارة ٢٤ - الحضارات العالمية تدافع؟ . . أم صراع؟ د . عادل حسن ٢٥ - التنمية الاجتماعية بالغرب؟ . . أم بالإسلام؟ د . محمد عمارة ٢٦ - الحملة الفرنسية في الميزان . ٢٧ - الإسلام في عيون غربية . . . ترجمة ١. ثابت عيد دراسات سويسرية ٢٨ - الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة . . أم تفتيت واختراق . د . محمد عمارة د . صلاح الدين سلطان ٢٩ - ميراث المرأة وقضية المساواة . د . صلاح الدين سلطان ٣٠ - نفقة المرأة وقضية المساواة . د . محمد خاتمي ٣١ - الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية د . محمد عمارة ٣٢ - مخاطر العولمة على الهوية الثقافية د . محمد عمارة ٣٣ - الغناء والموسيقي حلال أم حرام ؟؟ ٣٤ - صورة العرب في أمريكا . ترجمة وتعليق ا .ثابت عيد ٣٥ - هل المسلمون أمة واحدة ؟؟ د . محمد عمارة تقديم وتحقيق د .محمد عماره ٣٦ - السنة والبدعة . تقديم وتحقيق د .محمد عماره ٣٧ – الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان . د . عبد الوهاب السيري ٣٨ – قضية المرأة بن التحرير والتمركز حول الأنثى. ا . منصور أبو شافعي ٣٩ - مركسة الإسلام. ٤٠ - الإسلام كما نؤمن به . . ضوابط وملامح . د . يوسف القرضاوي

ترجمة ا . ثابت عيد

د . محمد عمارة

٤١ - صُورة الإسلام في التراث الغربي . ٤٢ - تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمنة .



تههيد	۳.
الجزع المشروع	
عاهة الصحراء العربيلة	٩
عاهة البداوة	<b>Y</b>
القطيعة مع الدولة	ź
القطيعة مع السياسة	
قدر العجز عن حماية الذات والتبعية للأغيار	١
دولة العجز القطري	





.. jgall syddl 11

thought all all that is the

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث . .

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم: أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا.

ولتقديم هذا التنوير الإسلامي للقراء ، دما رساه الملسلة التبي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر:

المستشار طارق البشري المستشار طارق البشري

رُّ و د . حسن الشافعي ١٥٠ . محمد سليم العوا

👑 ا . فهمي هويسدي 😗 د . يوسف القرضساوي

🤄 د . عبدالوهاب المسيرى 🛷 د . شريف عبدالعظيم

🧳 د . عسادل حسسين 🔞 د . صلاح الدين سلطان

وغيرهم من المفكرين الإسلامين . . إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

。無団

e grand advised with page was as 3 May 1923